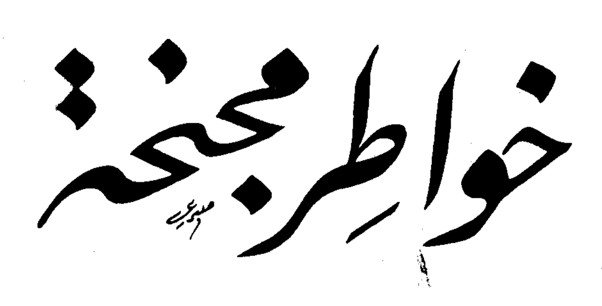
محمد حسين زيدان



الطبعة الثانية
١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م
المملكة العربية السعودية


بسم الله الرحمن الرحيم

خواطر مجنحة

****

المقدمة

.. فهل أكتب مقدمة لما أسميه كلمة أو كُليمة، والتي اخترت أن يكون الاسم «خواطر مجنحة»؟

أم أترك المقدمة لأجعل من الإهداء مقدمة؟

فلمن أهديه؟!

أهديه لاسم أستاذي السيد أحمد مصطفى صقر، رحمه الله، الذي إذا ما ألقى الكلمة يعلمنا الإنشاء ــ يبدو تيّاهاــ فالكلمة اليوم أصبحت مصدر التيه والزهو، فإن عصر الفَرَس.. عصر الخيل الذي اشتق اسمها من الخيلاء، كما هو ما تعلمناه عن الإمام عمرو بن العلاء، هذا العصر قد انتهى، لأن الفرسان قد اتخذوا الخيل زينة، فالعصر لم يعد صالحاً لأن تكون مصدر الإرهاب للعدو.

إن أستاذي السيد أحمد صقر أول كلمة سمعتها منه ــ وكان لا يلقي الإنشاء إلا ماشياً يتحرك ــ هو قوله:

ــ «لئن تناءت البلاد وشط المزار فذكراك في حصن حصين في فؤادي.. ذكرى حب أصلها ثابت وفرعها في الأعالي».

طربت لهذه الكلمة حتى إذا قرأت الرافعي، مصطفى صادق عشقت الكلمة، أطرب لجرسها، فإذا الرافعي رافد سخي كأنما كل الروافد التي ارتويت منها جمعها لي، فإذا أنا معه في «نهج البلاغة»، و«البيان والتبيين» و«كليلة ودمنة»، وأصحاب الترسّل وفحول الشعراء، امتّع نفسي حين يطربني جرس الكلام.

إن الرافعي وأمثاله، وأنا تابع لهم، يُقرأون بالأذن، فالجرس هو عطاء التفهيم لفهم الكلام.

الإهداء لاسم أستاذي السيد أحمد صقر يرحمه الله.

والكتاب هذا من شقين.. الخواطر المجنحة جعلتها تخطر كأنها من ذوات الحجال، تزف للقارىء ما بعدها ألا وهى.. كلمات وجدان.. كل كلمة اهتزت بها مشاعري كأنما فؤادي قد اهتز كالعصفور بلله القَطْرُ!

فالقَطْرُ هنا ابتسامة «ماسحة البلاط».. والقَطْرُ هنا مرة ثانية دمعة العين العشواء.. عيني أنا!

المؤلف

خواطر مجنحة

* الزهد حلية الأتقياء والمال قيمة الكرماء، ونبل النبلاء، و **بطر السفهاء ، وذل** البخلاء!
* إذا كان الجفاء طبعا فهو خليقة، فليعذر. وإذا كانت الجفوة تبطرا فهي خلق، فلتحذر.
* بيروت السروق.. فقد ركبت الطائرة من طوكيو أعود إلى جدة عن طريق بيروت، ولكن وقد فاح الشذى فإذا بي لا أسرع إلى بلدي، بل أقيم في بيروت أياما لقد سرقت، أوليس الحب سرقة عاطفة لعاطفة؟!.
* وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذو الخلق العظيم، كان جالسا فمرت جنازة فقام واقفا، فقالوا له:

إنها جنازة يهودي، فقال صلى الله عليه وسلم: أوليست نفسا؟ فأي رحابة اتسعت تعلن حرمة نفس الإنسان من هذه الرحابة؟ إنها قدوة، فإذا ما احترمنا أنفسنا كان ذلك خيرا لنا، واحترام النفس لن يتأتى إلا إذا اتسعت النفس لأ ية نفس نعيش معها في موطن واحد، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، أما من تعدى الحد فسيجرى عليه الحد.

* والإنسان حيوان لا يجتر طعامه، ولكنه بأحلام اليقظة يجتر أحلامه. فلا أدري كيف سقطت عليّ هذه الصورة في لمحة خاطفة وجدتني أراها تضحك كلها، وما كنت في أيامي الأ ولى إلا واجدا الضحك وابتسامة تنفرج بها الشفتان، ولكني في هذا الحلم جسّده واقع، رأيتها كلها تضحك، فإذا بي أرى العينين تبتسمان. فهل العيون تبتسم؟!

نعم.. إن بريق الشعور بالجمال والشعور بالحب والأمل بالفرحة كل ذلك يعطي بريق العين قوة الابتسام.

لم أر عينا قبل عينيها يشع عليها نور البسمة، كأنما كل ذلك أصبح الجديد في

عاطفتي، أشعل الحريق في وجداني، أيقظ الغفلة يوم كنت لا أعرف البسمة في العينين.

* وأمسكت وأنا أجتر أحلامي أسأل بائع الرطب : ما هذا؟! ..

أليس عندك رطب مناصف؟ فإذا جرس يضحك.. يقول : (إنه تمران) فقلت : (لا.. أقول تمر) فقالت : (أنا لست من الفصحاء). قلت : (كل ما فيك فصاحة.. تتكلمين بالصمت ليكون النطق خاتمة أحلام اليقظة التي اجترها، تجرني إلى بعيد، فقد بعد عليّ أن أكون القريب).

فما أحلى أحلام اليقظة حين يستطيع المحترق أن يعبر بها عن الواقع.

* قالوا للإمام علي رضي الله عنه: هل تقاتل الخوارج على الكفر؟ ذلك يوم النهروان.

فقال الإمام بكل السماحة والصدق: (هم من الكفر فروا).

* وحين أعد نفسه لقتال أهل النهروان وقف لا يجرد سيفه (ذو الفقار)، فقال: (فتشوا عنه).

فرجعوا إليه يقولون: ما وجدناه، وهم يعنون بذلك ذراع فتنة الخوارج.

فقال الإمام: (فتشوا عنه، والله ما كذب ولا كذبت) يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فرجعوا إليه لا يجدونه فقال: (فتشوا عنه، والله ما كذب ولا كذبت).

وفي المرة الثالثة وجدوه فاذا هو (حرقوص بن زهير) الذي قال لرسول الله الكلمة الفاسقة النابية (اعدل يا محمد).

فقال النبي: (و يلك من يعدل إذا لم أعدل؟).

ثم أعلم الرسول أصحابه بعلامات زعيم الخوارج وهو (حرقوص بن زهير).

فالإمام أراد التثبيت ليعرف الحق فلا يخوض الباطل. وهكذا ينبغي لكل إمام، ألا يرزأ الناس بشهواته ونزواته.

* وليست المرة الأ ولى التي أنشر فيها هذه الصورة ولكن الشيء بالشيء يذكر فحين احتل الفرنسيون البلد المسلم العربي (الجزائر) وهزم الأمير عبدالقادر الجزائري، يخرجونه من أرضه أخذ الإنجليز كنوع من الحرب على فرنسا التي كانت مشتعلة بين الإنجليز والفرنسيين حينذاك، فعرضوا على الأمير المجاهد أن يتوجوه ملكا على

سيناء، فلم يجدوا في الأمير المجاهد إلا كلمة الإيمان ونظافة العقل.

لقد قال لهم: هل أنتم تملكون سيناء؟ أهي أرض بريطانية تمنحونها لي؟ إني أرفض هذا العرض!.. وهكذا مازال استعمار الأباطرة الأوربيين يفعل بنا الأفاعيل إن زال اسم الاستعمار فقد بقي الاستغلال والاستقطاب.. استعمار الأباطرة الأوربيين.

* ترجم العرب كلمة قالها هتلر بكلمة قالها عبدالملك بن الزيات: (الرحمة خور في الطبيعة).

ولم يكن ابن الزيات فيلسوفا وإنما كان أديبا. ولكن هتلر قال هذا المعنى عن فلسفة روزينبرج ونيتشه.

وهكذا نسبت الكلمة إلى هتلر بعد ابن الزيات: (الرحمة خور في الطبيعة).

فقلبناها على هتلر، حيث نقول: (إن القسوة طبيعة الخور)!

* وأمنيات الشباب متعة ولو كانت من أحلام اليقظة، فقد تقسو المادة حتى تقهر الحب، لا يصل إليه حين يظل في برج غير عاجي يبهرج حياته بالأماني، وتمضي هذه المتعة حتى إذا اكتهل أو شاخ تجمعت لديه كل الفرص، يستحوذ على هذه الأماني حقيقة بين يديه، فإذا هو لا يطيقها، يرفضها، لأنها فقدت المتعة ولو أصبحت حقيقة.

فلقد قلت في (صورة) نشرت: كنت أرجو أن تحقق أمانيَّ، يلعب بها عليَّ الطموح، فإذا أنا الآن أرفض كل هذه الأماني، ولو استطعت نيلها، فلم أعد قادر على التمتع، وهناك مثل قاله (دزرائيلي) اليهودي أحد صناع الامبراطورية البريطانية، فحين شاخ منحوه اللقب الكبير (لورد) فقال وهو يصعد الدرجات حين تعب:

ــ والآن؟ ماذا يفيد هذا اللقب؟ لما لم يكن وأنا في شرخ الشباب؟

* متعة أن ترى الجمال، وشقوة ألا يراك الجميل، ولكن المزيج من المتعة والشقوة يصنع لك متعة جديدة، فالشقوة ألم، والألم متعة حين تمتد به الذكرى إلى بعيد.. ومن رؤية هذا القريب الذي تكلم أمامك فإذا وجناته تضحك، وإذا عيناه تبتسم، وإذا أنت تسير على عكازك قو يا عضل نفسك، يشتد به عضل جسمك.

ما سألتها ولا سألتني، وما عرفتها ولكنها عرفتني، فالمعرفة منها زادت المتعة

متعة، وملأتني شقوة حين ضاعت فلا أراها مرة أخرى، وإن كانت ماثلة في الرؤية الحالمة.

* في القاهرة تذكروا ابراهيم عبدالقادر المازني، صديق العقاد، ومن ميزاته أنه لم يكن مسخرا لحزب، وإنما هوسخر مجلة (السياسة) الأسبوعية ميدانا لقلمه.

قلت مرة لحمزة شحاتة: سننسى المازني، لأنه كاتب مصري بحت ليس كالعقاد، عربي مصري أو مصري عربي. قال: وسننسى الكثيرين ولكني وإن نسيت المازني كاتبا فلم أنس له مجيئه مع خير الدين الزركلي وأحمد باشا زكي شيخ العروبة لا يسأل عن موقف القصر مع المملكة العربية السعودية، فقد جاء وهو المصري يحضر الاحتفال بذكرى جلوس الملك عبدالعزيز تغمده الله برحمته في يوم السابع عشر من شهر الجدي عام ١٣٤٦ هـ.

لم أسأل إلا عن الوفاء يصحبه خير الدين الزركلي يرحمهما الله. فمن الوفاء له أن نذكره بخير ولو على طريقة (أذكروا محاسن موتاكم).

* الذين يملكون قوتهم الذاتية بالزعامة الصادقة والقاعدة الملتفة حولها.. لا يتوقحون.

أما الذين يستمدون قوتهم من ساداتهم، فهم الذين يتبجحون بالوقاحة و يتوقحون حتى على شعوبهم!

* حيث لا تكون حرية القول تنتشر حرية الفعل، فإذا الوعي ينتهي إلى لا شيء، لأن وعاء الفكر استحال إلى معدة.. إلى شهوات!

* ليس الحرمان ألاَّ تجد، وإنما الحرمان أن تفقد ما وجدت!

* الحزن: سكينة النفس المطمئنة.

والألـــم: تحركها.. يطارد الأمل، إن تحقق أو لم يتحقق.

والـقـلـق: هـزيـمـة الـنفس الأمّارة.. يثبطها أن تتحرك، تتعثر بين يديها الآمال، لتجد أنها في فراغ.

* كان الأباطرة يحتكرون الموبقات، فأصبح السماسرة أباطرتها!

* قالت أرنب لديك: أينا أشهى طعاما؟!

ـــ قال الديك: أنت لمن صادك، وأنا لمن اشتراني.

وكان الغراب على الشجرة، فقال:

ـــ وأين أنا؟

ــ قالت الأرنب: أنت لا تباع ولا تصاد.
ــ فقال الديك: لا .. ولا، إنه قد يكون أشهى طعاما حينما يكون جيفة لجائع!

* لكي تكون نظيفا في أعين الذين أمسكوا بالترف بطريق السعار.. ينبغي أن تتسخ من قمة الرأس إلى أخمص القدم، لتكون واحدا منهم. أما إن كنت غير ذلك فسيقتلك سعارهم!

* الزنجي: لا ينظر إليه في الشارع، و يطرد من الصالون، و يستقبل في المخدع!
هذا هناك.. في شعوب باعت نفسها لحرية الفوضى، وفوضى الحرية.

* تكلنز الإنسان بالذهب فاستعبد، وتأمرك بالدولار فجن، وتبلشف بالرغيف فجاع.. فهل الإنسان اليوم إلا ولادة غير طبيعية لهذه الأحوال؟!

* عجز الإنسان أن يجعل الحجر ذهبا، واستطاع أن يجعل الذهب حجرا.. يبني العمارات.. يقرط الذهب في قراريط يشتريها من بيوت اليتامى، تعمر بها نفسه الخربة، وتخرب بها نفوس الذين يفتشون عن السكنى فلا يجدونها.

* شعور الجميلة بالجمال، يكسوها الجلال، يعطيها من الغطرسة سلطاناً تفرضه على الحبيب، فسلطان الغطرسة منها ليس تكبرا وإنما كبرياء.. في باطنه عطاء التواضع مغلفا بالجلال!

* إذا خطب رجل لرجل امرأة فقد افترض عداوته..
وإن قاد رجل لرجل امرأة فقد فرض صداقته!

* كرة القدم: لعبة استحالت إلى تعصب، فأحالت العصبية الأسمى إلى لعبة!

* البخل: شحك بما تملك..
والحسد: شحك بما لا تملك.
تمنع ما ملكت يكسبك الحسرة، وتمنع أن يملك غيرك نعمة من الله فيصلى وجدانك بالحريق، فقد قالوا: الحسد نار تحرق الجسد!

* أسعد أيام الضعف، ما كان يصدر عن قوة الحب.
وأتعس أيام القوة، ما كان يصدر عن ضعف الكراهية!

• قال له أستاذه: احذر يا بني القاتلين ـــ البطر والفرح ـــ لأن بهما يتبعثر العزم و يهلك الحزم.

• كان (حمزة شحاتة) يضيق بالعيش أحيانا، وتضيق به الحياة أحيانا، فكتبت إليه:

ـــ تريد أن تكون عدما في الحياة، وأنت حياة في العدم؟!

• الأنثى الأمومة تحترم الذكر الفحل.. لأنه الأ بوة!

وترحم الذكر الطفل.. لأنها الأمومة.

• في عصر يوم من أيام الربيع، وفي المدينة المنورة كنا ثلاثة نجلس على قنطرة يسيل فيها الماء صافيا، كان له لون أبيض: محمد عمر توفيق، طاهر زمخشري، محمد حسين زيدان، وسكت كل منا.. تتكلم العيون كأنها تناغي بعيدا، كل غنى على ليلاه، فقلت:

ـــ ما أجمل هذا المكان.. فاحت فيه رائحة «الفاغية» كأنما هى قد كستنا الحب المضاعف لمن تمنينا أن يكون معنا. هذا رائع.. ينقصه الذي ينغصه، فقد ضاع جمال المكان في صمت التمني، فلو جاء الحبيب لذهب التنغيص فتضاعف الحب مرة ثانية.. الحبيب والمكان.

• الشيطان أنكر نفسه منذ عرف الإنسان، والإنسان عرف نفسه منذ أنكره الشيطان. قصة الخليقة بين الشر والخير.

• وقال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وان أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.

• وكتب سعد زغلول للأستاذ الامام محمد عبده كتابا أطنب فيه، فقال: اعذرني عن الاطناب فليس لدى وقت للإيجاز!

• قال طه حسين يجيب من سأله: ما رأيك في أدباء اليوم؟

ـــ فأجاب: انهم يكتبون أكثر مما يقرأون!

• وقف طه حسين حين زار المسجد النبوي يقرىء السلام بعد النبي وأبي بكر على

عمر، فقال:

ـ أما أنت يا عمر فسلامي عليك.. أذكر موقفك في «الحرة» تسل سيفك، فتقول: لن يبقى في هذه الجزيرة يهودي أو نصراني.

٭ كان «أحمد عبدالغفور عطار» ذا علاقة بالدكتور طه حسين.. يزوره في مصر كما هي علاقته مع العقاد، وحين أقام محمد سرور الصبان حفلة تكريم لطه حسين ورفاقه في بيته بجدة، ألقى «العطار» كلاما حمل فيه على مصر.. قال: ضاع أدبها وحل في لبنان، فاغتاظ طه حسين وقام يقول:

أبني حنيفة أحكموا سفهاء كم
إني أخاف عليكمو أن أغضبا

قال هذا البيت وجلس، البيت لجرير، فما أسرع بديهة طه حسين، وما أشد الملابسة!

٭ وفي الحملة ـ أثارها مصطفى صادق الرافعي على طه حسين ـ وضع عنوانا لفصل من كتابه «تحت راية القرآن» يصف طه حسين:

ـ خنفساء ذات لون أبيض!

ما كنت أريدها من الرافعي، وما عيب بها طه حسين، ولكنها كلمة براقة!

٭ وفي خصومة الرافعي للعقاد عرّض به في «كلمة وكليمة».. يلوم الوفد أن احتضن العقاد و يشير إلى انقلابه على الوفد:

ـ إذا اتخذت سفيها ليسافه عنك فاحذره في اليوم الذي لا يكون فيه سفيها إلا عليك!

٭ وقرأنا لطه حسين كلمته المؤمنة:

ـ دع عنك العلم عندما تفكر في الله، الله موجود في منطقة عذراء من نفسك، فلا يخدعك العلم، وإن شئت فقل ترهات العلم.

٭ وقال أحد أصحاب التوقيعات من العباسيين حين سألوه عن مصير أحد الأمراء، فأجاب:

ـ لقد زرعته الطاعة.. وحصدته المعصية!

* الثقة عطاء من الواثق ومن الموثوق به، فإن انقلبت إلى حظوة، فإن العطاء من الواثق يضيع ليكون الأخذ دون عطاء من الموثوق به، فالحظوة تدمير للثقة!

* في زحمة القلق يطغى سلطان العاطفة على من يعيش القلق، فيصبح إنساناً بين أمرين: الشماتة بالفاشلين، والحط من قيمة الناجحين!
فالشماتة متعة لديهم، وإسقاط النجاح ردة العزيمة وسفاهة الشتيمة!

* قال لي: هل أحببت؟!

ـ قلت: سؤال فضفاض.. فهل تخلو الحياة المركبة من زوجين من كل ما هو ممتّع بالحياة ـ إنسانا أو نباتاً ـ من الحب؟!.. لكنك تسترت.. تسأل عن الحب، بينما أردت أن تقول: هل عشقت.. فهناك فرق بين الحب والعشق؟!

الحب هو الإطار كحياة للحياة، أما العشق فهو انتماء الإنسان.. أحب نفسه أولا، فعشق الجمال من أجلها.. فالعشق ليس بتضحية من العاشق وإنما هو ذروة الأنانية فيه، فالتضحية لها في التزاوج بين عشق الذات ـ الأنا ـ يتجه به عطاء لأخذ من المعشوق. فالعشق ـ قبل أن يكون ذوقا وقبل أن يكون مفاجأة ـ هو نداء المعشوق للعاشق وإن كان الإعلان عنه طلب العاشق من المعشوق.

نعم لقد عشقت.. لكن بَعُد منالها حين اضمحلت العزيمة مني.. لا أهابها وإنما أرهبتني ظروف أحاطت بي، حتى إذا احترقت لم أزل أعيش الحريق الحي في فؤادي.. كأن النار حين اشتعلت تحرقها تزاوجت في فؤادي ناراً تحرقه ونوراً يهديه!

* قال لي: إذا ابتعدت عن طريق ما تكره أو من تكره، استراح بالك، ولكن.. حذار أن يكون هذا الابتعاد خدعة، فالكسب ـ كل الكسب ـ أن تصر على الابتعاد عن ما تكره ومن تكره، وتفرض عليه ألا يكسب منك ثغرة.. ثغرة يدخل عليك بها!
وإن ابتعد عنك من تحب، أو ما تحب.. فتلك خسارة ينبغي لك أن تحاول الاقتراب من الإنسان والأرض والتراث لتعطيك القوة لأن تنتصر على من ابتعد كارها لك أو من بعد وأنت كاره له!

* ألم أن تكون اليد العليا عطاء وعونا مجالا لفسوق الكلمة!
فلم تعد الأوضاع العربية تطيق الجحود.. حتى ان بعضهم يتبرأ من فضيلة أن

يكون أخي.. أن أكون أخيه، إن رذيلة فسوق القلم، تحطم وشائج القربى.

إن كثيرا من حرب السلاح بين عربي وآخر قد اندملت جراحها، ولكن قسوة الكلمة هى الحرب التي لا تلتئم جراحها!

* اسرائيل– وعلى لسان وزير خارجيتها– قال: إنه لا خلاف بيننا وبين الولايات المتحدة من أجل بيع السلاح للعرب.

إنه بهذه الكلمة قد أوضح أن كل الضجة التي تثيرها اسرائيل حين تعلن الولايات المتحدة عن بيع صفقة من الأسلحة لدولة عربية وتأخذ إسرائيل بالصراخ والاحتجاج فإن ذلك يعني أن كل ما تثيره إسرائيل ما هو إلا إعلان واغراء ليتمسك من يشتري السلاح باتمام الصفقة، كأنما تدعو العرب بهذا اللجاج إلى أن يشتروا الأسلحة.

بلطجة في الإعلان!!

* نزار قباني

* واستقرأت قصيدتك مرتين، فبكيت أنت وأبكيت، وحزنت أنت وأحزنت، وأسقطت القناع عن الظلم فما استنار الطريق.. ثم غضبت فأغضبت، حملت العرب كلهم أن يكونوا هم قتلة «بلقيس».. فدعني أدير حوارا معك عن الغضب والاغضاب.. فلعلني أحد الأوائل الذين بكوا معك على بلقيس، كأني أمثل أرضي –أرضك أنت– أرض الشيح والقيصوم والخزامى والفاغية والنخلة وعطر الورد الطائفي.. أرض المشرق للشعر يوم كان في «عكاظ»!

أحاورك.. أسألك.. لو أن «بلقيس» كانت في أرض سبأ، أكانت تقتل؟!

ولو أنها كانت تكشف ساقيها في القصر غير الممرد على شاطىء الخليج، أكانت تقتل؟!

ولو أنها كانت جنوب كاظمة في أرض الانباط وطسم وجديس واليمامة المشمخرة، أكانت تقتل؟!

ولو كانت شرق السويس– من الخليج إلى الدار البيضاء– أكانت تقتل؟!

إذن... فقد كانت «عراقية» شامية.. فما قتل بنت بابل، إلا ابن بعلبك.. عراقية قتلها شامي.. لبس نحلة الخميني، كأنما بردى قد عق الفرات!

ألم تعلم عن شامية أخرى قتلها مواجهة شاميون دخلوا عليها بيتها في ألمانيا ؟! تلك أختك الدمشقية ـ طنطاو ية عطارية ـ !

إنك قد استطعت الكلام فلم تفصح ، وأخوك «علي الطنطاوي» ما استطاع الكلام فأفصح ! ..

لا تظلم العرب، واسأل عن الدمعة البيضاء في عيون الأمهات والبنات العرب الأتراب ... بكوا معك على بلقيس !

اعطني احصاء لعدد القتلى من العرب .. تجدهم شاميين قتلهم شاميون !!

* هل ننتظر من توفيق الحكيم كتابا رديفا لـ« عودة الروح » .. أم سيكتب كتابا عن « فقدان الوعي » ؟!

اللهم لا شماتة !!

* قالت دجاجة لمرقدها : ما أسعدك إذ أبيض فيك !

ـ فقال لها : وأي سعادة في ذلك .. تبيضينها فيأخذونها ؟!

ـ فقالت الدجاجة : أوليس من السعادة أن تكون مكانا مقصودا .. تقصدك الدجاجة ، و يقصدك آكل البيض ؟!

* المنّ من القوي استعلاء ، ومن الضعيف استجداء ، ومن القرين بلاء !

* يسخر الإنسان من نفسه إذا تبجح بما ليس فيه ، قبل أن يسخر منه سامعوه .. كأنما ينطبق عليه معنى هذه الآية : (ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) .

* ذهب إلى الصيد ، فتاه في البيداء .. فأغاثه إنسان يأوى به إلى بيت من الشعر. كاد يموت عطشا ، وفتش في جيو به يريد أن يكافىء المغيث ببعض من المال ، ولم يكن معه ، فتذكر دفتر الشيكات .. أخذه من الحقيبة ، كتب شيكا بعشرة آلاف ريال ، ودل المغيث على متجره في المدينة .

و وصل المغيث إلى المدينة ، فطرده حراس المليونير، وسمع الضجة فشارك خدمه في طرده ، كأنه لم يعرفه ، وأخرج المغيث الشيك يبصق عليه ، يمزقه .. فإذا المليونير يقهقه ، ثم يسقط على الأرض في أزمة قلبية !

* قال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : الناس ثلاثة .. عالم رباني ،

ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق!

* وصفق المأمون ينادي خادمه، فجاء الخادم يقول للمأمون: يا غلام.. يا غلام، أما يستريح الغلام؟!

فأنكر السامعون سوء الأدب من الخادم. فقال المأمون:

ــ هكذا.. إذا حسنت أخلاق السيد، ساءت أخلاق الخادم!

* وقال المعتصم يسأل أحمد بن أبي دؤاد: ما بال أخي المأمون أحاط به رجال أربعة أثمروا، ودعموا ملكه. أما أنا فصنعت رجالا أربعة لم يثمروا؟!

ــ فقال أحمد بن أبي دؤاد: إن أخاك المأمون اصطنع الأصول فافرعت وأثمرت، وأما أنت فاصطنعت الفروع، ولن تثمر الفروع إذا لم تكن نامية على الغصون.

كأنما «أحمد بن أبي دؤاد» قد أخذ ذلك من الحديث الشريف: (الناس معادن.. خياركم في الجاهلية، خياركم في الإسلام إذا فقهوا).

* قال هتلر: الرحمة خور في الطبيعة.

فقلبناها عليه حين قلنا: والقسوة طبيعة في الخور، فكل الطغاة جبناء، وكل الفرسان الشجعان لم يكونوا من سافكي الدماء.

* هبت عاصفة والحجيج في عرفات.. تساقط البرد، واكتسحت العاصفة الخيام، فإذا الناس قد ضاع منهم رشدهم، فتعذبوا مرتين.. من العاصفة، ومن ضياع الرشد. وسألني الأستاذ أحمد قنديل: ما هذا؟!

ــ قلت له: عاصفة جعلت القادرين في عجز من قدرتهم، والعاجزين في قدرة من عجزهم.. ذلك أن أصحاب الصواوين والخدم والفراش والرياش قد أصيبوا. فكسرت ساق محمد سرور الصبان وكاد يهلك غيره!

ونقل قنديل هذه الكلمة في تخابث إلى محمد سرور الصبان، فسألني: ماذا قلت؟!

فأعدتها عليه، فقال:

ــ لقد فاتك شيء واحد: إن الله كتب على نفسه الرحمة في ذلك اليوم، فتجلى سبحانه وتعالى، فلم يجدهم يستأهلونها، لما اقترفوا في ذلك اليوم، فتجلى عليهم

بالعذاب يستغفرونه ، فرحمهم !

ــ قلت : كأنك حفظت قصة قوم «يونس» عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

* قال لي : ما بالها قد انقلبت ، فلم تفقد الحب ، بل إنها فقدت الرحمة وحتى الاحترام لمن يستأهلونه ؟!

ــ قلت : دعني مما هي فيه ، ولأكون معك بما أنت فيه .. فأنت أعطيتها ما حرمت منه ، وحين شبعت بك جاعت لتــكون شرسة ، كأنما هي تطــوعك لتعطيها مذلة الذكر أمام عطاء الأنثى فهي في وضع : أن تأخذ فلا تعطي ، وأنت في وضع : أن تعطي وإن لم تأخذ !!

* قبل أن تستحوذ على رضا الناس عنك ، بأسلوب أو بآخر ، ينبغي أن تحرص على رضاك عن نفسك .

إذا ما فقدت رضاك عن نفسك لا تنتفع برضا الناس عنك .. فحين يبدأ وخز الضمير يكون اضمار السخط عليك منك ، هو إظهار السخط من الذين خدعوا بك !

* مأســاة ...

أن تكون بكل ما تملك من عقل وعاطفة وثقافة المنتمي لترابك ولتراثك .. ثم لا تجد نفسك إلا المبعد عن الانتماء ، يقصيك : اللامنتمي .. لأنه قد ملك الوسائل التي ترضي الشهوات وتطغى بها النزعات !

* وللمتنبي صورتان رسمهما بالحرف ، كلمات فيهما عمق السخرية ، كأنه قد سبق عصر «الكاريكاتير» .. فالصورة الأولى في هذا البيت :

وأســود مــشــفــره نــصــفــه ... يــقــال لــه أنــت بــدر الدجى !

والصورة الثانية في هذا البيت :

يســتــخــشــن الخــز حين يــلــمــســه ... وكــان يــبــرى بــظــفــره الــقــلــم

فالصورتان رسمهما لـ« كافور» ــ أبي المسك ــ !

* قلت لـ«محمد مصطفى حمام» يرحمه الله وهو المسلم مائة في المائة ، والمصري والعربي والظريف والشاعر مائة في المائة ، ولكنه الفقير ألف في المائة .. قلت له :

ـ ما بالك وأنت الفقير لا تملك شروى نقير تلعن الشيوعية وتكفر بالاشتراكية، وأنت غير خاضع للتأميم والمصادرة؟!

ـ فقال: لقد سلبوني أعز ما أملك: الأماني، والآمال.. سلبوني حتى أحلام اليقظة!

* وكم كان شوقي عظيما في هذا البيت.. صاغ من كلمات ثلاث هذا البناء الضخم في بيت واحد:

الأماني حلم في يقظة   والمنايا يقظة من حلم

* الفضيلة قد تنقلب إلى رذيلة حينما تكون فخا يتصيد بها صاحبها الذين يثقون به، فكثيرا ما دمعت عيون من قسوة ازدواج في السلوك، كأنه القط الذي تنسك يأكل العصافير عندما جاءت لتهنئته، أو لتتبرك به!!

والمسؤولية قبل أن تكون عقابا بقانون، أو ثوابا بقرارات هى قبل ذلك و بعد ذلك تقوى ضمير!!

* الوطنية حين ترفض العقيدة، وتطرد التراث وتعلن «القرف» من الماضي وترضخ لزخارف مجلوبة تسلب نفسها كل قوام لها لأنها حين تفعل ذلك تكون قد باعت كل قيمة لها، إن الوطنية ليست سلعة تباع إلى سلطان جاء بمذهب بهر بالقوة، أو خدع بميثاق الوطنية.. بل هى إيمان بكل ما للأرض من قيم، من حبة التراب إلى ذلك الموقف الباهر في غار حراء!!

* حين يصبح التعامل بقيم الرجال كالتعامل بأي سلعة يخضعونها للعرض والطلب.. فحين ذاك تتساقط المروءات في شهوات المعدة فيعلو سماسرة يجيدون الزخرفة لما هو مطلوب منهم.. مغلفة في علبة ليل، وحينئذ تذوب كفاءة الرجال في أوحال التعليب!!

* حين تصل دولة ما إلى قوة قاهرة تستطيع أن تقهر بها غيرها، فإنها بالتالي لن تقهر إلا نفسها.. كأنما القوة الجبل.. تقف عاجزة أمام ما تصنعه الرياح.. تأكل التضاريس، أو تصنع التضريس!!

* كل أنثى لابد وأن يكون لها ذكر ،من ذكر وأنثى خلقكم . ولكن الاختيار في

ظاهرالأمرهوالاضطرار في عمق العواطف.. تزعم أنها تختار زوجها بينما ذلك هو الإغراء. هى لن تكون إلا لرجل واحد.. ذلك هو اضطرارها. هي لن تكون إلا لرجل واحد.. ذلك من تعطيه شفتيها!!

* طردوا الزنوج اليهود من إسرائيل لماذا؟ إن إسرائيل تريد أن ترضي العنصريين في الولايات المتحدة!!

* المؤتمرات الثلاثة التي عقدت قبل هذا المؤتمر الرابع لدول عدم الانحياز كانت متهمة بشبه الانحياز للاتحاد السوفيتي. من هنا قال الروس: من ليس علينا فهو معنا. وقال دالاس: من ليس معنا فهو علينا!

أما هذا المؤتمر الرابع، فلا أحسبه بعد إلا أن يكون انحيازاً ضد الانحياز، فإن سياسة الوفاق قد حتمت ذلك، لكن هنا سؤال: فهل بعض الدول التي حضرت المؤتمر، أو حتى بعض مؤسسيه يعتبرون غير منحازين بحق مع أن بينهم و بين الاتحاد السوفيتي معاهدات وهل موقف كاسترو إلا انحيازا ضد اللاانحياز؟!

الإجابة تظهرها الأيام!!

* قالوا: إن خروشوف حين ألقى خطابه المشهور يسلخ جلد ستالين قال أحدهم: ألم تكن أنت من أعوانه؟.. فسأل خروشوف: من تكلم؟.. من سأل هذا السؤال؟!.. فلم يجبه أحد، قال: لقد كنت مع ستالين مثل هذا السائل معي الآن.. منعني الخوف ويمنعه الخوف!!

* العقاب على الجريمة قد يكون فيه بتريشوه الجمال، ولكن فيه جمال آخر من جلال الحفاظ على المجتمع. لئن فقد الجمال الشكل فهناك إعطاء الجمال للمعاني.. في الاطمئنان على حياة الجمال في المجتمع، حين ينتشر الرعب تفقد النفس مشاعرها لأنها شغلت بذاتها، وحين يستقر الأمن تجد النفس مشاعرها.. تبصر بذلك الجمال، والجلال والكمال!!

* إن ما صنعه رئيس النمسا «كرايسكي» لم يصنعه مجاملة للعرب، ولا طلباً للأذى من إسرائيل ومن وراءها، وإنما هى مشاعر امبراطورية «ماري تريزا» ومأساة «أنطوانيت»!!

دمر الامبراطورية فساق كاليهود، وقتل الامبراطورة خطرون كاليهود، وما يدرينا أن اليهود كانوا وراء ذلك، فامرأة يهودية هي التي حملت الامبراطور «سليمان القانوني» أن تصل حوافر خيله إلى فيينا. إن «كرايسكي» لا ينكر على «ستيفان زيفايج» يهوديته، وما كان ليطرد «اميل لدفيج» ليهوديته.. إنهما لم يمثلا حضارة اليهود، وإنما مثلا حضارة الغرب كلها وحضارة النمسا على الأخص. إن عمل «كرايسكي» ليس فيه خذلان اليهود فحسب.. بل هو جرس الخطر قرعه لأوروبا كلها، بل هو لطمة من يد على وجه «ترومان» !!

* قال أحدهم: لأن أكون الرجل المحسد خير من أن أكون المشفق عليه، الإشفاق كلمة من لسان باسم الصداقة، وهي في الوقت نفسه مؤلمة لأنها تحدد الوضع بين صديقين، النافر من الإشفاق يبتعد عن المذلة، والمتبرع بالإشفاق يقترب من الاستعلاء، فأي شيء أخطر من شيء يحدد العلاقة بين صديقين؟!

* صحابي أنصاري اسمه «محيصة بن مسعود» واسم أخيه «حيصة». الأخ الكبير «حيصة» لم يسلم حين قتل «محيصة» التاجر اليهودي ابن سنية، فما هي القصة؟!

هي.. بعد أن قتل محمد بن مسلمة رأس اليهودية كعب بن الأشرف قال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم: (من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه).. يأمر النبي بتطهير الأرض المسلمة.. دار الهجرة.. بل الجزيرة كلها من دنس اليهود، فوثب محيصة بن مسعود المؤمن المطيع على ابن سنية فقتله، فغضب أخوه «حيصة» وأخذ يضربه و يقول له بلسان المشرك: (أي عدو الله قتلته؟.. أما والله لرب شحم في بطنك من ماله)..

فقال محيصة المؤمن: (أما والله.. لقد أمرني بقتله من ولو أمرني بقتلك لضربت عنقك)؟! وعجب حيصة، ثم قال: (والله إن دينا بلغ بك هذا المبلغ لعجب) ثم أطرق فأسلم. هكذا أمرنا بقتل اليهود.. لا نقتلهم ذميين، وإنما نقتلهم (إذا حاربونا وقتلونا وأخرجونا من ديارنا!).

* نشرت «الحياة» كلمة لكريم، كاتبها المبرز.. جاء هذا النص في مقدمتها: «سخر كاتب بريطاني في مجلة الايكونوميست من حملة شاركت فيها الصحف

الأمريكية حول اختيار العرب يوم عيد الغفران لشن هجومهم على القوات الإسرائيلية فقال: «إن الأمريكيين يعرفون أن جورج واشنطن بطل استقلال أمريكا اختار في هجومه عبر نهر يوتوماك على القـوات البريطانية في واشنطن في حرب التحرير ــ يوم عيد الميلاد عندما كان البريطانيون يتناولون ظهرا طعام الغداء.. وحرب التحرير الأمريكية لا تختلف في ظروفها ولا في موضوعها عن الحرب التي يشنها العرب لتحرير الأرض المحتلة» أنشره، وليس في حاجة إلى تعليق!!

*نكتة رواها أحدهم.. قال: إن جولدامائير حين ذهبت إلى فينا قالت لكرايسكي: لا تحسب أني جئتك لأطلب منك العدول عن منعك لهجرة اليهود.. يمرون بالنمسا، وإنما جئت أطلب منك أن تهاجر أنت إلى إسرائيل!

ـ فقال كرايسكي ضاحكا: أنا يهودي ومواطن نمساوي.. لست من الصهيونية ولا من إسرائيل. أعيش في بلد لم يقتل اليهود، أعيش في بلد لم يقتل يهودي نمساويا. إني زعيم هنا، ولا أريد أن أكون صعلوكا هناك!

وخرجت مائير، ولو لم تعاجلها الحرب المسلمة لطلبت من الحاخام طرد كرايسكي من ملة يهود!!

* مستر ويلسون طلب بالحاح أكثر من مرة أن تعدل بريطانيا عن حظر الأسلحة لإسرائيل ولم يضع في اعتباره أن دولا عربية تتأثر بهذا المنع كالأردن مثلا التي احتجت على بريطانيا، ولم يضع في اعتباره حماية الاقتصاد البريطاني.. أهدر صداقة العرب ويهدر الاقتصاد البريطاني، فأي رئيس لحكومة ظل يفعل ذلك؟.. لا نطالبه بالحفاظ على صداقة العرب، ولا نلومه على صداقة إسرائيل وإنما اللوم سيقع عليه لأنه أهدر الولاء لمصلحة بريطانيا، وأهدر الرواج لاقتصاد بريطانيا!!

* صنفان من القراء: أحدهما يقرأ ليسر بالصواب، وليعدل الخطأ.. ويقوّم الانحراف.. فكأنه قد أخذ موقف القيّم لا يستعرض عضلات القوة وإنما يعرض إشراقة النفس تحب الحق وتحارب الباطل!

وصنف لا يقرأ لك إلا إذا افترض الخطأ حتى إذا لم يجده فرضه فرضاً في كل ما تكتب فأخذ يرسل المكيدة، تأولا، كأنه قد كشف الخطأ من مكنون صدرك لا من

مكتوب سطرك!.. يقول: ما أراد كذا، اللفظة حلوة لكنه وضع المر في داخلها، وهناك سماعون للكذب!

* قال لي: لماذا تركته يذهب منك؟!

ـ قلت: لقد تركته لأذهب عنه، لأني لم أعد أطيق تطاوله علينا دون أن يطولنا بطول نحن أعطيناه له، ولم أعد أثق به إنسانا ينظر إليك، على أنك «تحت» بينما هو لم يكن «فوق» إلا على أكتافك.. فلقد أعطيته الكثير حين تحملت أوضاره، وغفرت أوزاره وعذرت أعذاره، وأغفلت تجنيه يظهره ولا يخفيه، وسترت توافهه فإذا أنا ثقيل اللفتة.. أعجز عن الالتفات حين أفتش عن مثال. فالتفت ذات يوم فإذا بي حين تركته أشعر بأني قد طرحت الغم وإن بقى الهم!!

* قال: أي الفصول أحبها إليك؟!

ـ قلت: ذلك الفصل.. يشغل الناس عن الناس بزحمة الحياة فيه عن الفضول في التقصي عن أحوال الناس، هو فصل الصيف.. شهر الحاصلات والرحلات.. يجني الناس ثمار الحاصلات و يرتاح الناس من ألسنة الناس. أما الشتاء ففصل نشط ومكسال في آن واحد.. يكون الفراغ فيه مشغلة تستهلك ثمرات اللسان.. ترى لها لونا أبيض ومساء أسود كليل الشتاء!!

* أتشكو من فشل الحب لأن الصداقة معه لم تدم لك على هواك؟!

إن شكواك عجز عن تحمل أثقال الفؤاد كأن مطالب الجسد قد تغلبت على مثالية العاطفة. أو كأن الفكر ـ لا التفكر ـ قد تلهى بشيء تملكه اليد حينما فرطت به العاطفة. القوة للحب بالحب هى في صدق الحب.. أما الصداقة فاضافة قد يحلو بها الحب، ولكنها إن زالت لا يزول.

* إن الذين يذهبون عن صدق الحب لفشل الصداقة ينكرون على أنفسهم صدقهم.. ينكرون أنهم أحبوا، ولا ينكرون أنهم أذنبوا في جانب الصدق تجافيا عن الصدق، وتلاحيا مع الصداقة. الحب صدق، والصداقة ظاهرة. الحب الفاشل لم يصبح خالدا لأنه فاشل كما يقول أنيس منصور، وإنما كتب له الخلود لأنه كان صادقا. ولم يكن فاشلا إلا بالحرمان من الصداقة.. أما الحرمان من الصدق فيعني

أنه لم يكن حيا!!

* الاحتواء.. قد لا أكسبه تملكا، وقد يحتويني امتلاكا.. فسيان عندي أن يكون الاحتواء انتصارا لي، أو انتصارا عليّ..

بهذا أكون قد وصلت إلى هدف، هو اليقين بأنك تفعل ما تريد بالصبر.. لا بالقدرة!!

** قال لي: وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟!

ـ قلت: لا، لا يستوي هؤلاء مع أولئك في عرف المثل.. أما ما نراه واقعا فإنه يقول لنا قد يتفوق الذين لا يعلمون لأنهم يعلمون بعلم جديد اسمه: علم الحظوة!!

** قالوا: إن مكتبة أنيس منصور تضم ٧٠ ألف كتاب!

ـ قلت: من المؤكد أنه قد استحال إلى حرف.. يكتبه سبعون ألف عالم!!

** قال جمال الدين القاسمي، وهو يفرق بين السنة والبدعة: وكم من فكرة مبتدعة سقيمة دكت سنة قويمة!!

** من هو الزنجي اليوم؟! هو في عرف البيض حيوان ناطق.. يرفض في الشارع، و يطرد من الصالون، ولا يعفي من التجنيد.. تفرض عليه الواجبات، وتسلب منه الحقوق. وعلى وجه آخر.. تصفق له الشقراوات، وترفع لتحيته القبعات في «لاس فيجاس» و يستقبل بالترحيب وراء السجف وفي المخادع!!

** قلت له: لماذا تلقي بثقلك على فلان.. أتراه قادرا على تحمله.. ألا تظن أن من الضعف ـ كل الضعف ـ أن يرتكز قوي على ضعيف، ومن القوة ـ كل القوة ـ أن يعف الأقو ياء عن الضعفاء؟!

** صائغ الكلمة البيانية يمسك بسنان القلم كأنه ريشة من جناح نسر يحلق بالمجنحات.. يضرب بها على الوتر في «عود» الموصلي أوزرياب، أوأمين المهدي، أو نشأت. وإذا أرسلها من فمه يرسلها رنانة الجرس كأنه الأشدق لا يمرض الكلام في فمه.

وناطق الكلمة الصبيانية كأنه ذلك البدائي من حوض «الزمبيزي» أو دلتا الكونغو.. يعزف رقصة على الطنبرة.. يهتز من جلاجلها المصنوعة من أظلاف الغنم

أصحاب الأعصاب المرهقة أو الذين افتقروا إلى أذن سماعة، أو ثقافة لماحة!!

** المبدأ حق، فلا توسط للحلول فيه.. إما هو وإلا فالباطل. أما المصالح فمنافع يمكن التصالح عليها بقبول الحل الوسط، فإما الحل الوسط وإلا فطرف غانم وطرف غارم!

** صاحب من ينسى معروفه عندك و يذكر معروفك عنده، إنه حين ينسى معروفه لا يثقلك بالاشفاق ولا يرهقك بالمن، وحين يذكر معروفك فإنه يعطيك المتعة ليأخذ متعة أخرى. يعطيك قيمتك عنده ليأخذ قيمته عندك. الشكران في وجدان الرجال علامة تعلن أنهم يطيقون صنع الجميل كما يحملون الشكر لمن يصنعه معهم!

** ليست القوة في القوى، أو القوية.. هى التي تسوقني إلى العبودية وإنما هو الضعف يستعبدني بقوة قاهرة.. يشعرني بانسانية الإنسان لا بوحشية الظفر والناب!

إن الضعف ــ أعني السقام ــ في وجه عليه لون الياسمين قوة في الجمال. ما أحلى الصفرة الخفيفة على بياض ناصع!.. أحسب أن كلمة «ناصع» لم تأخذ صفتها للبياض إلا بهذه الصفرة.. تعلن السقام لتفعل بالقوة!!

** لم تكن إنسانة تلك التي قتلت عواطفها من أجل غضبة أغضبها بها زوجها، ولم يكن إنسانا ذلك الزوج الذي يحرق عواطف زوجه بما يغضبها وليس هناك ما يغضب الحليلة إلا الخليلة!!

** إذا كنا نقرأ، وكنا نفهم ما نقرأ فإن الولايات المتحدة ــ كما اتضح لدى الإنسان اليوم ــ هى الخاسرة في صفقة الوفاق. هكذا هم في كل الغرب يخافون حتى إن بعضهم لم يخف تحركه ضده. أما في الشرق الأقصى فهم لا يبالون لأنهم سيحاربون بنجاح كما يقولون!!

** قال ابن زياد لجاريته رابعة العدوية حين عصته أن تشرب وأن تغني: سأريك كيف تخدمين السادة ياهلوك. هات السوط يا مبروك، ومادرى أنها تعيش العذابين، فلقد فرغت من عذاب العصيان مسلطا على الابدان، وشغلت بعذاب الطاعة تتسلط الرحمة بها نعمة على الوجدان. ما درى أن هذه الهلوك أصبحت لا تعرف إلا الله ملك الملوك.

العارفون يشغلهم عذاب الرحمة في الوجدان، والجاهلون تلهيهم المعصية عن الشعور بالعذاب على الابدان!!

** قال: أتكره أحدا؟!

ــ قلت: لا.. لأن الكراهية، وإن كان لها مظهر السلب في المعاملة، والمعايشة، فإنها في الحقيقة عطاء، فانشغال النفس بها عطاء، وإني لا ربأ بذي كرامة أن يعطي الخبث من نفسه.

ــ قال: والحقد؟!

ــ قلت: إنه تجسيد لعمل الكراهية، فهو ليس عطاء بالاختيار، وإنما هو أخذ منك بالقسر.. كأن تحقد عليهم وقد سلبوا منك الغوالي: الحب، التسامح، الرضا، وحتى التفوق لا تذوق له طعما مع الحقد!

** قال: والسرف؟!

ــ قلت: خذ هذا المثل، أو هي الحكمة تجد جوابك فيها:

لا خير في السرف، ولا سرف في الخير!!

** «الفيتو» في هذه الأ يام.. ليس حماية لاسرائيل. إني أحسبه دفاع المحترفين عن مواقفهم.. من هنا تجد الأمر فيه على صورتين: صورة الاعتراف بالانحراف عن العدل لأنه دفاع عن موقف، وصورة الانحراف وراء احتراف الغطرسة واكتساح الفضائل.. كأن كل فضيلة قد أحالها «البزنس» مغلفة معلبة في حانوت اليهودي شيلوخ!!

** الشيطان اليوم يفتح شدقيه يلتهم الرحمة من أفئدة الناس لأنه قد وصل إلى فهم عميق في «الشيطنة» عرف به أن سلب الرحمة من قلب إنسان يعني استسلاما لكل مفاسد الشيطان!!

** كلمات مسلمة.. أصبحت اليوم سلاحا للسلاح، شعار المقاتل في الجبهة، ونداء المتحدث.. لأن المعركة معركة الإسلام هي: بعون الله.. بإذن الله.. إن شاء الله.. باسم الله.. الله أكبر.. هذه الكلمات المسلمة تهز الأ رض المسلمة لتقاتل، وتهز المجاهد ليستشهد، وتبعث الرعب في أفئدة الأعداء. إن الأعداء يعرفونها، و يعرفون القوة التي تنفعل نفوسنا بها ومنها ولها.. فسلطوا على غرار منا أن يتركوها

وألهم الله الأخيار منا ألا يستحوا منها فكانت سلاحا في يد السلاح ومازالت جالبة النصر!!

** شهداء المعركة المسلمة في عبور القناة قد بلغوا المائتين ولا أكثر. ذلك عون الله أخلف تقدير البشر. كان البشر قدروا أن يقتل في هذا العبور الصعب خمسة عشر ألفا، فإذاعناية الله أخطأت حساب الحاسبين وقالت: هأنذا أصنع لمن آمن بي النجاة والنصر.

** قالت مائير: إن خط بارليف ما هوإلا جبنة هشة لا قيمة له!!

نصدق اعترافها.. نقبله عليها لنقول: إن كل إسرائيل أصبحت جبنة هشة، فمادامت قد اعترفت بأن هذا الخط القوي الذي كلفها أكثرمن مائتين وخمسين مليون دولار قد أصبح جبنة هشة، فإن ما هو أقل منه من كل ما تملك ما هوإلا جبنة هشة. إننا أمة نتفاءل. من قولها هذا نتفاءل كما يتفاءل سيد من ساداتنا من قبل، هو «عاصم بن عمرو» أراد أن يهينه كسرى فحمله كيسا من تراب، فأخذ يزف نفسه.. يقول لأصاحيب القادسية: ابشروا إن الله أعطانا تراب أرضهم!!

** هل جن مستر «و يلسون» ؟!

لا.. لكن العمالة ليس فيها صراحة الجنون، ولا عقل المجنون. عمالة و يلسون جعلته يلومنا إن قاتلنا «اليهود» في يوم عيد. إنه يعرف أن اليهود ما احترموا أعياد أحد.

هل نسى ما صنعوا للمسيح.. أي عيد يعادل قيمة المسيح؟!

هل نسى ما صنعوا بالحواريين؟!

أحسب أن روح القديس بولس قد لعنت و يلسون من أجل هذه الكلمة. أي عيد يحترم لهؤلاء الذين جعلوا من المساجد مواخير، ومن الكنائس زرائب؟!

لكنها العمالة تفعل البلادة ولا تفعل الجنون!!

** سيدي.. بقية الناس «سعيد بن المسيب» رضي الله عنه تجهز للجهاد فقالوا له: إنك عجوز لا تقدر على الحرب. عينك عوراء تعجزك، فقال: دعوني أذهب أكثر سواد المسلمين.. دعوني أذهب أخدم مجاهدا لا خادم له.. أعلف خيل المسلمين.. احرس محارمهم!!

ذلك سعيد بن المسيب، ومن مثل سعيد؟!
رضي الله عن سعيد!!

•• البعض يرسخون مكانتهم بما تفيض به القلوب...
والآخرون يزرعون مكانتهم بما تمتلىء به الجيوب!

•• الأمانة حب.. فالأمين يحب نفسه، فهو في هذا مفرط الأنانية التي ترتفع إلى فوق، فلو لم يحب نفسه لما صانها عن الخيانة، ولو لم يحب من حوله لما صان حقوقهم. والحب أمانة فنفس الألفاظ التي عرفنا بها الأمانة تصلح لتعريف الحب كأنما الحب والأمانة شيء واحد!

•• المروءة.. أعني خلق الجنتلمان.. أعني رفعة القيمة.. أعني العظامية.. تزداد بالتربية.. فإن فقدت التربية تنقلب إلى ضراوة.. فإن لم تكبح بالعقاب تعيش في العذاب.. عذاب الضمير.. عذاب النظرة المحتقرة من المجتمع. تستحيل هذه الظرة إلى عقاب!.

والسراوة.. ما أجملها حين تكون اكتسابا.. التربية صنعتها:

نفس عصام سوّدت عصاما
وعلمته الكر والاقداما
وصيرته رجلا هماما

فالعصامي عظامي بما اكتسب!

•• امتلاك الحب ـ أي الاستحواذ على الحبيب ـ يقتل الشوق و يبعد الزهوة ولربما أرهق التذوق، من هنا.. عاش الذين ملكهم الحب ولم يملكوه. عاشوا الألم، وامتلكوا الحياة بألم اللذة.

امتلاك الحب قد لا يكون امتهانا له، ولكن قد يكون مجلبة الهوان للذين لا يملكون من أنفسهم العبودية لسيادة الحب!

•• موسيقى الزنوج قد أتعبوها حين رحلوها إلى مواطن كل الحياة فيها صخب. حين كانت في موطنها كانت ترفيها لأهلها الذين يقتلهم الفراغ، وتكسلهم الأمراض.. فالصخب في آذانهم حياة لهم وطرب. أما الذين سرقوها منهم فانها

تسرق منهم راحتهم بصخبها.. فهم في واقع حياتهم يعيشون توتر الأعصاب فلا تزيدهم إلا إرهاقا.. هي على منابع النيل وعلى نهر الهدسون همجية الحضارة!

وهي في حوض الكونغو حضارة البداوة..

** الجغرافيا عطاء..

والتاريخ أخذ

** في دنيا الإنسان خوف من المجاعة.. فمن أين جاء هذا الخوف؟؟

أهي الأرض شحت، أم السماء بخلت، أم الإنسان تكاسل عن الإنتاج؟

لا.. كل ذلك لم يكن.. فالذي هو كائن الآن أنهم في ألمانيا يهرقون آلاف الأطنان من الحليب في النهر وفي بلد آخر يحرقون آلاف الأطنان من الحنطة بالنار، وفي مكان آخر يقولون لزراع الحنطة: لا تزرعوا الحنطة هذا العام، و يسلمون إليهم قيمة ما ينتجون، حصار ضربته الدول الغنية لتكسب من ارتفاع الأسعار، وليكن من بعد ذلك الطوفان!!

** قلت: أنت تصنع النجاح لذاتك بهذا الأسلوب.. أسلوب النداذة.. تتعامل به مع الرجال الذين يعملون معك.. أنت تعطيهم سيادة أن يملكوا التصرف فيما تكلفهم به، وهم يعطونك السيادة طواعية.. عطاء بعطاء!.. أما الآخر الذي يتخذ من العاملين معه اتباعا فإنه يسرقهم في ظاهر الأمر.. بينما هم يسرقـــونه في باطـــن الأمر. ليس هناك عطاء منه ولن يكون هناك عطاء منهم. الإيجاب في أسلوبك يصنع النجاح وتبادل السلب مع أسلوبه يصنع الفشل!

النداذة لمعطيها.. قيمة لمعطاها، أما العبودية فتسخير.. لن تأتي إلا بالسخرية، هو يسخرهم، وهم يسخرون!

** فرحت حين قرأت أن الدكتور (وحيد رأفت) يكتب في مجلة مصرية وفرحت أكثر حينما قرأت أن الاستاذ (مصطفى مرعي) أصبح عضوا في المجمع. فرحت لرد الاعتبار، ولصيانة الأخيار. فرحت أن مصر لم تعد هرة تأكل بنيها!

** قلت له: مالك تمدح البغل، وتعلفه أكثر مما تعلف البقرة؟ أليست البقرة أفضل وأنفع من البغل؟

ــ قال: أنت ما تعرف.. رسول الله ركب بغلة ولم يركب البقرة!

ــ قلت: ولكن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد أحل لنا لحم البقر، وحليب البقر، اسمع.. البقرة والجمل هما أعانا الإنسان على بناء الحضارة أما البغل فيكفي أنه بغل. لا حليب ولا لحم ولا شيء!

* افريقيا تجوع؟! ذلك عجيبة العصر.

إن حيوان الغاب في افريقيا يموت من التخمة، خصوصا الحيوان النباتي، يشبع من الغابات.. بينما الإنسان الافريقي يشكو من المجاعة مع أن بلاد افريقيا بلاد الأنهار، بلاد الأرضين الخصبة، لكن العجز هو من فعل الإنسان.. فما أقوى الإنسان الافريقي على احتراف العجز.

إن نهر الكونغو، والنيجر، والزمبيزي، والنيل يعطون افريقيا كلها انتصاب القامة بالتحدي لأوروبا، حين تزرع افريقيا القمح والذرة والموز والكركدي. لئن كانت افريقيا في حاجة إلى ما تصنع أوربا وأمريكا، فإن هؤلاء أشد حاجة إلى ما تنتج افريقيا.

إن البيت في أوربا وأمريكا يتلمظ على الكاكاو، فلو زرعت افريقيا لاخضعت معدة الغربيين الذين ما استعمروا افريقيا إلا من حاجتهم إلى الزبد والرغيف، وما أكثر الزبد والرغيف لو كان الافريقي كالياباني، كالاسترالي، إن اليابان ليست أرضا مدرة لأي إنتاج ولكن إنسانها قد أخضع انتاج الدنيا كلها لقيمة ما يصنع، وكل ما يصنعه من إنتاج الآخرين لا من إنتاج اليابان.

إن ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، ورث شعبها الخراب والدمار لكل شيء فيها، ولكنه الإنسان الألماني قد استطاع أن يرتفع إلى فوق بما يصنع، وحين تلقى العون من الولايات المتحدة لم يشتر الألماني خاتما من الماس، ولم يلبس بدلة من الصوف المستورد من لندن، ولم يتحل بربطة عنق وارد باريس، لأنه كان في ثورة على الدمار، والثائرون لا يعبأون بالزينة، وإنما كل احتفائهم بأن يتزين تاريخهم بالتضحية في سبيل أن ينقذوا شعوبهم.



صُـــوَر ١

وتلفتت إليّ تسأل عن نفسها : أهي باقيةٌ في نفسي ؟! ولم أجد إجابة ترضيني ، أو ترضيها .. فقد فزع الفؤاد من احتراف الترضية ، فحين أبتعد عن الحب بقسوة الأخذ منها .. لم أجد نفسي تطيعني أن أمنحها العطاء !

تخيلتها حين سألت أنها نهضت يتثاءب النعاس من عينيها ، فكدت أرضخ للذكرى ولكن قسوتها أضاعت تلك الرقة في عينيها الناعستين !

وامتد الخيال حين ابتهجت لأعطيها لتأخذ ، فإذا بي أراها ماثلة أمامي .. فقد تجسدت الرؤية ــ ليست في مرآة التليفون ــ فلم يصلنا ذلك بعد ، وإنما كانت مرآة النفس الواجدة حين صهرها الألم من ضيعة الحب .. فقد يضيع الحب في غفلة الحبيب ، أو من بعض نزواته ، وتلك مأساة وقت ، ولكن .. ضياع الحب فيها ومنها مأساة .. هى أول من يشقى بها ، وإن كابرت ، فالأنثى كثيرا ما تكون سعيدة بشقاء الحب ، ولابد أن تشقى حين يكون الحب فيها أخذا دون عطاء .

كانت حلوة .. أحلى ما فيها : الحزن العميق .. لا تخفيه المسرة . فالحزن العميق يصبغ وجنتيها بصفرة الياسمين ، وما أجمل أن تكون الوجنتان ورديتين تحمر وتصفر بوميض لحظة ومضت فمضت .

كنت أعشق جمالها حين تشكو .. لا بألفاظها وإنما بألحاظها ، فالشكوى المرة لا تخفى عن مشاعر المحب ، لكنها قد خسرت نفسها .. إذ لم تكن باقية في نفسي ، ولم أخسر نفسي لأن بقاءها مازال عميقا .. أستتر به عنها ، لئلا تصبح رخيصة بالأخذ ، ليكون ما أعطت من قبل ذخيرة الإبقاء عليها .. فلأكن أنا المحب ، وإن لم تكن هى إلا الشيء الثمين الذي أصبح طاهرا بما كسب ، خاسرا ذلك الثمين .. ألا وهو بقاء الحب !

فلعلها ، وقد أسمعتها السؤال العابر عن الغيبة وعن الأ و بة .. كأنها قد كانت

عابرة سبيل، فصرخت تقول:

ــ ما أقساك!

ــ قلت: القسوة على نفسي وليست عليك، فإنك كنت القاسية بالرفض، وما أقسى أن أجد الرفض منك، ولكنني أحيله إلى سلوة.. ماتت في نفسي الغالية، و بقيت في وجداني العالية، لأن الوفاء للحب إذا ما أضاع الغالية.. لابد أن يحتفظ بالعالية!

الغالية أنت: كنت المعنى للعشق.

والعاليةأنت: أصبحت المادة في علاقة التعارف.

وقد أصبحنا أنا وأنت في نطاق المعرفة.. ذلك ما يؤلم وإن كنت تعيشين كما يقول الشاعر:

أتراهــا من كــثرة العشــاق　　　تحسب الدمع خلقة في المآقي؟!

* صوتان عشقهما صاحب الأذن السماعة، صوت محمد رفعت وصوت فيروز، ولا أريد أن أتكلم عن قيمة الطرب والغناء والموسيقى وإنما هى ملاحظة عرضت فأحببت أن أستعرض السبب القوي الذي أحال الأذن، وهى تسمع الكثير والكثير القوي والمعجب أن تدخر نفسها محصورة على ألا يكون الصوت الرصين تسمعه إلا صوت محمد رفعت، إلا صوت فيروز.. مع أن أم كلثوم قد بلغت الذروة، كأنما كل أذن عربية قد فتنت بسماعها (تتغنى كأنها لا تغنى) كما هو وصف ابن الرومي وحيد، أو هو قول ابن الرومي أيضا في وحيد.

مد في شأو صوتها نفس كاف　　　كأنفاس صوت عاشقيها مديد

كل هذا يدعو إلى أن أسأل عن السر المستكن والظاهر في قوة الضعف، صوتان ضعيفان، إذا ما تكلما كانا يهمسان، وإذا ما قرأ رفعت أو غنت فيروز استمال الضعف إلى قوة أخاذة من الانفعال بالانصات، صوت أم كلثوم قوة تبرز به القوة، أما صوت هذين، رفعت وفيروز فضعف تبرز منه قوة الاستقبال بالسماع، لا قوة النداء منهما (تعال اسمعني لأنك مرغم بقوة ما أغني أن تسمعني) لم يقولا ذلك نداء وإنما فعلاه استجابة دونما نداء.

* في صبيحة ذات يوم قبل أكثر من عشرين عاما كان يبيت عندي وفي بيتي في مكة حمزة شحاتة وفي ليالي الصيف وليس في البيت إلا أنا وهو ننام تحت السماء على الدكة، والخادم اعتاد أن يفتح الراديو يتحين قراءة رفعت، فلما قرأ الشيخ قال حمزة شحاتة: ماذا تريد من هذا الصوت الضعيف؟ قلت: سيخدعك بقوة الضعف حين تنصت، وأنصت بتظاهر كأنه مرغم، كأنما أمليت عليه ذلك، ولكني عرفت بعد حينما استمر سماعه أنه قد أخذ، فهو صاحب أذن موسيقية يجيد الضرب على العود، و يعرف السلم بكل الأنغام، رأيته قد أطرق، قال: لقد سخرتني وسخرت مني هل هناك صوت يسمع أجمل وأعظم من صوت رفعت؟ دعوتني إلى أن أطرب بالخشوع والخضوع، ولو كان العود في يدي لاستجلبت ما استنكهت، حسبي الله عليك.

قلت: أليس في هذا الوصف أطلقه على رفعت إن قوة السحر في صوته هى في أنه لا يصرخ وإنما يهدهد الوجدان بصوته الناعم الرخيم؟

وعرفنا بعد ذلك فيروز، فإذا هى على نسق واحد مع محمد رفعت، لا تصرخ لا تدعو أحدا يسمعها، وإنما كل من رن صوتها في أذنه قد استجاب لأن يسمعها.

إن رفعت قد مات يرحمه الله، و ينبغي أن أترحم على الذين اختلسوا منه أن يسجلوا صوته في هذه الآيات التي يقرؤها.

أما فيروز فهي تعيش رغم أن لبنان قد مات، ليس في وجدانها ولكن من فعل العشاق، فهل تعيش فيروز لتعود لها الحياة جديدة في لبنان الجديدة؟ أليس من الجور أن تخاف فيروز في لبنان وهى العندليب الذي أعطى لبنان الصورة الجمالية كأنما هى أعطته جمال الجمال الذي هو فيه.

فهل أقول قول ابن الرومي في وحيد:

يا خليلي تيمتني وحيد ففؤادي بها معنى عميد

* قال لي: أعرف عنك أنك إذا ما خلوت مع نفسك واختلى بك ما تأتي به ظروف تكربك أو مفرحات تطربك، أخذت تنشد شعرا تتعزى به، تطرد كل السلبيات في نفسك، أو تهتز تعلن ما أطربك.. فما شأنك اليوم مع بعض ما تنشد به من الشعر؟..
قلت: حفظنا أن كبيرا عظيما كثيرا ما كان ينشد هذين البيتين:

إذا عقك الأدني الذي أنت حز به فواعجبا إن سالمتك الأ باعد
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

فمعظم المسؤولية التي يحملها قد أعطاها من عقله أن يتحلى بصبر الكبرياء وكبرياء الصبر. وقد يحلو له إذا ما اهتزت إرادته أن يخاطب الإخوان والأعوان والبنين بهذين البيتين أيضا:

البيت لا يبنى إلا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

ودعُني أنصرف إلى نفسي لأنشد قول ابن زيدون، أحمد:

أضحى التنائي بديلا عن تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم و بنا فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم ولا جفت مآقينا

ثم انطلق من هذين البيتين إلى بيت أحمد شوقي:

أحرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس

وأعود إلى نفسي مرة أخرى لأنشد قول ابن زيدون:

ما على دهري بأس
يجرح الدهر و يأسو
والمحاذير سهام
والمقادير قياس
ربما أشرف بالمرء
على الآمال يأس

تلك كانت سلوتي.. الإعراب عن المرارة بالحلاوة.. وأرفض أن أجتر الحلاوة مرة ولكن جاءت المرارة في هذه الحلاوة في قول الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار

فأعاد صاحبي يقول: حين يمرضك الكرب تعزف لي نغمات الطرب، وحينما تطرب لا أجدك إلا إنسان نفسك.. قلت: هو هكذا (إن الله لا يحب الفرحين)...

• حينما كنا شبابا، وكانت نشأتنا في طيبة الطيبة، وتربتها غزلة، وإذا ما مسنا وهج الجمال، في الإنسان، وفيما حوالي الإنسان، و(العقيق) الوادي الجميل، مرتع الغزل والمتغزلين أيام كان (الترف) عذريا، و(العشق) تصوفا.

حين كنا كذلك، لم نتعمق في قراءة الشعر، الذي يستجيده الباحثون، يتعالى به الناقدون على الشعر الذي يجري على الألسنة، ألسنتنا نحن الشباب، الذين كنا ما نعيش الغربة عن التربة، ولم يتملكنا سعار الاغتراب، كما يجرى على ألسنتنا هذا الشعر، الذي كان يسترخصه، من يتهمون عصره بعصر التخلف.. فإليكم هذه الأمثلة.

صاح في العاشقين يالكنانة ... رشا في الجفون منه كنانه
بدوى بدت طلائع لحظيه ... فكانت فتاكة فتانه
خطرات النسيم تجرح خديه ... ولمس الحرير يدمي بنانه

نراه شعرا جميلا، يصف واقعا عما أفعم الأفئدة بحب الجمال.. وما كنا نعرف عن المتنبي هذا البيت، فقد أصبح لدينا هو واقعنا الآن:

وفتانة العينين قتالة الهوى ... إذا نفحت شيخا روائحها شبا

وأحيانا ينشدنا السيد عثمان حافظ، هذه الأمثلة حفظناها عنه:

وشادن قلت له ... دعني أقبل شفتك
فقال لي كم مرة ... قبلتها ما شفتك

وبيت آخر من هذا القبيل:

قبلته في ثغره فقال لي ... بث اثتحي بث اثتحي

وما أحلى البيتين للشاعر المكي (سحرا):

ظبي جاوا قد سباني ... لفظه الدر الأنيس
ثغره كنز اللآلىء ... ريقه انقر منيس

أليس هذا شعرا، عبر عن الشعور؟ فمن التعسف والرفض لهذه الحلية البيانية أن نرفضها.

قد تكون المقارنة، في مجال الدرس.. أما إن كانت في غير هذا المجال، فهي من الدرس لهذا التراث، أي تعريضه للاندثار.

• والأنثى تعطيها الأمومة، مكانة عالية، ليس عند أبنائها و بناتها وأهليها جميعا فحسب، بل في المجتمع كله... وحين جرى حديث، عن أحد (الفلانيين) قال شاب: إنه قد تزوج فلانة التي كانت.. فلا أدري كيف غضبت؟ لكني أدرى لماذا غضبت؟ أليست الأنثى أمي وابنتي وأختي، فأخذت أزجره: لا تعد إلى مثل ذلك، تخلق بخلق الإسلام، إنك تغتابها الآن، لكنك ذكر، تغتفر لنفسك كل ما يعيب، وتحسب على الأنثى، أقل ما يعيب، إن في هذا السلوك، ما يظهر منه، ان الذكر يتعالى، ولو كان معيبا مسرفا على نفسه، و ينزل إلى أسفل حين يغتاب الأمهات، مع أن الخفية، لا تعطيه التعالى، وإنما أنت حينما تصف أي أم بما وصفت تستكبر أن تكون هي كذلك، لا تعطيك التعالي، فالإكبار للأنثى، هو الذي يجعل الرجل يتلسن، كما تلسنت.. وخذ مثلا، أن أي امرأة، وقع بينها و بين أخرى خصام بعيد، يكاد أن يكون مستحيلا، أن تسب امرأة أخرى، بما يجرح عرضها، ولو كانت تعرف عنها ذلك، فالمرأة عفيفة اللسان، لا تذكر عمن تخاصمها، ما يشين عرضها، فإن هي سبت فانها تسبها: هي عدوتي، طو يلة لسان، غجرية، تكره الجيران، إلى آخر هذا السباب، الذي لا يتنافى والعرض..

فأشرف ما في الأمهات أعراضهن، أما الرجل فيسب الرجل الآخر، بكل أنواع السباب، التي تتناول العرض، فالأم، أعني الأنثى أين كانت، وعلى أي مكانة، فإنها من احترامها لنفسها ستّارة، لا تعيب الأعراض..

ــ قال: لم أكن أقصد، أرجو أن تسامحني..

ــ قلت: أرجو أن يعفو الله عنك، وان يأجرني حيث أدبتك...

• والإنسان يعيش المتعة حين يرى الجمال في كل شيء، في الجبل وتضاريسه ومساقط الماء كأنه قد انشق جداول، وفي الشجر وفي كل شيء..

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد جل جلاله خلق الإنسان ومتعه، خلقه في أحسن تقو يم، و يتم حسن التقو يم في الخَلق إذا أتم الله النعمة على الإنسان بحسن

الخلق، ولا تحسبوا أن عشق الجمال في كل شيء ينافي حسن الخلق، بل إن الخلق الكريم ينمو بحسن الذوق، فالذين لا ذوق عندهم يتعثر سلوكهم..

إن الجمال ليس في اتساق النسق وإنما في تنافر الشكل، أنت لا يعجبك جبل أملس كأنه حصاة واحدة وإنك لتعجب من جبل ذي تضاريس، نتوء يبرز به شكل وكهوف وجداول فإن هذا الاختلاف يكسو الجميل جمالا..

كل هذه المتع يتذوقها الإنسان.. يعشقها.. يسرح ويمرح بين السفح والقمة.. تحت جذع النخلة أو حين يرقاها يجني رطبها، الجمال في النخلة هو في النسق غير المتسق بين جريدها التي أصبحت كل جريدة ليفا وكرنافا، وحتى العراجين تتلون شماريخها متعة للنظر وإمتاعا للذوق..

كل هذا تشبع منه النفس والعين وحتى القلب، لكن شيئا واحداً قد يتفوق في تذوقك له ومتعتك به.. هو الكلمـــة البيانيـــة شعـــرا أو نثرا، حديثا مرسلا أو مذاعا أو متلفزا، ذلك لأنه يجمع بين متعة النفس والعين والقلب و يزيد عليهم بمتعة العقل ومتعة الاحتفاظ.. كل جميل غير الكلمة البيانية قد ينتهي إلى الذكرى، أما الكلمة البيانية فإنها لا تنتهي بالذكرى لأن متعة العقل بها يجعلها حاضرة ناضرة بالتذكير كأنها وقد امتلأ العقل بها أصبحت تذكرك بنفسها دائما.. فأصحاب البيان لا تكاد تنساهم، فالبين لهم عنك بعيد أن يكون، لأن الإبانة منهم قرب عقل ونزهة روح!

و يكفي البيان ثناء قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو في الحديث الصحيح: (إن من البيان لسحرا) ودعني أضرب لك مثلا بكلمة أو كلمات، قالها الإمام علي بن أبي طالب ــ كرم الله وجهه ــ (إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإن أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه).. وكلمة خليل مطران شاعر القطرين يصف جنازة مسيحية يذهبون بها إلى القبر بين الطبل والزمر فقال:

عظـــــة جنـــــت فغنت في الطـــريق

وكلمة الرافعي مصطفى صادق: (إذا اتخذت سفيها ليسافه عنك فاحذره في اليوم الذي لا يكون فيه سفيها إلا عليك!) وكلمتي: (الأباطرة كانوا يحتكرون الموبقات فأصبح السماسرة أباطرتها!).

إن الكلمة البيانية متعة النفس والقلب والعقل والروح.

ودعونا نعتزل الجد لئلا نعتزل عن الغزل!

فكاتب هذه السطور ابن المدينة المنورة والمدينة تربة غزلة، فأتحدى كل ناسها أن يقول واحد منهم إنه ما أحب، فالحب إذا امتلأ به قلب ترق به العواطف ولا تسترق عقول العاطفيين.

كنت جالسا في مكتبة السيد (عثمان حافظ) بباب الرحمة، وبجانبي أستاذنا وشيخنا (محمد عبدالقادر الكيلاني التونسي المصري) (تلميذ جمال الدين الأفغاني)، والتركي اليوناني والمدني، فمرّ إنسان تياه قد شبع شبابه من جلال الجمال وجمال الجلال!

فقال الشيخ:

ربي إن الملاح جاروا علينا　　　وتعدوا حدودهم فأجرنا

فاذكرني بما نسيت، ولم أذكر في حينها إلا أبياتا للمنخل اليشكري.

قال هذا الجاهلي كأنه ابن هذا العصر:

ولقد دخلت على الفتاة　　　الخدر في اليوم المطير
الكاعب الحسناء ترفل　　　في الدمقس وفي الحرير
فدفعتها فتدافعت مشى　　　القطاة إلى الغدير
ولثمتها فتنفست　　　كتنفس الظبي الغرير
وأحبها وتحبني　　　ويحب ناقتها بعيري

فأنشدتها للشيخ، فقال:

ــ أتلومني بإنشادك ذلك البيت، أم تذكرني بأيام خلت؟

قلت له:

ــ أنت تونسي، وتونس ورثت حضارة الأندلس، فأثر (زرياب) و(ابن زيدون وولادة)، كلها نبض اعراقك وقلبك..

فقال :

ــ اغتر بنا عن تونس ، ولازالت هى المؤنسة ، فهي تؤنس كل حبيب !

قلت :

ــ فهل أنشدك أبياتا أخرى ؟

قال :

ــ فرج كربي أوزدني كربا !

فأنشدت من مختارات الحماسة لأبي تمام :

وفي الركب محنى الضلوع على جوى ... متى يدعه داعي الغرام يلبه
تذكر والذكرى تشوق وذو الهوى يتوق ... ومن يعلق به الحب يصبه
غرام على يأس الهوى ورجائه ... وشوق على بعد المزار وقربه

خلجات

حين (تهوبر)

وتهو بر العجوز: لقب أطلقته على محدثي، فقد كان عجوزا عرفته شابا، فلم يكن في شبابه يتطرف تطرف المراهق ،كان بريء الطفولة وغاب عني طو يلا حتى إذا رأيته وأخذت أحدثه بذكريات عن العفة التي كانت تلبسه، وعن الحب الذي كان يلبسه، فما رايته إلا حبيبا لا يفارقه العشق.. لكنه لم يكن لديه سعار القبلات، كل عشقه كان في عمق النظرة حتى إنه ليتذكر صورة الجميلة أقبلت عليه وهو بين أحلام اليقظة و يقظة الأحلام، لم يكن نائما وإنما كان غائما.. أقبلت عليه فانبهر بجمالها، لم يكن يعرفها، وذهبت في لحظتها العابرة، فما زال يعشقها إلى الآن.. كأنما خيال العشق مسه مسة (الهو بر)، فأراني أطلق عليه الآن: لقد تهو بر العجوز!

فلئن كان في شبابه غير متهوبر،فهو في شيخوخة العجز أصبح (يتهو بر) وقال لي:

ــ ماذا تعني حين أطلقت عليّ هذا التهو بر؟

ــ فقلت له: أنسيت قصة ذلك العجوز.. عشق الفتاة النمساو ية (مسز هو بر)، فكل عجوز يسحره الحب أطلق عليه هذا (التهو بر). إن (توفيق نسيم باشا) الرجل العجوز رأى هذه الفتاة النمساو ية فملكت عليه طفولة الشيخوخة فيه، فالعجوز طفل في عاطفته.. ما أرادها زوجة.. متعة مخدع، وإنما أرادها أماً لطفولته.. يطرد الأنين بالحنين، و يتمتع بالحنان، فالعجوز طفل يستجدي الرحمة فلم يجدها إلا في هذه الجميلة، فما أصدق حب الشيخ.. لأن مايريده منه أسمى بكثير من الذي يريده الشاب، فالعجوز حين اضمحلت الفحولة في الجسد تسعرت فحولة جديدة فيه: عمق الحب ونعيم العشق، فالعجوز.. الفحولة الجديدة فيه تظهر بارعة فارعة بهذا السعار.. سعار النظرة: يحدق ويحدق في الجمال، كأنما هو يشرب الجمال، وكأنما الجميلة تأكله، وتتسعر اللمسات باليد، فالشاب حين يلمس الجمال تأخذه نشوة، أما العجوز فحين يلمس الجمال يأخذ العمق من الرحمة.. كأنما كل اللمس لديه

رحمة يعطيها لنفسه، أما السعار الذي يأخذ منه و يعطيه، فهو سعار الشفتين! فالعين واليد والشفتان هي عطاء المتعة له.

ـــ وقال لي: هل عرفت من شأني ما أنا واقع فيه؟!

ـــ قلت: رأيتك ثقيل الوطأة (واثق الخطوة).. أمد لك يدي أصافحك، فلا أجد يدك في يدي.. لقد ذهبت تلمس زهرة النرجس حتى إذا غاصت يدك في وريقاتها وتبللت اليد بالطل أخذت دموع النرجس تمسح بها دمعة من عينيك.. حتى النرجس الطاغية التياه قد ذلله العشق، كان ذلك في مشاعرك حين أخذت دموعه تمتزج بدمعك، فما الذي أصابك؟!

* واغتربت.. أربعين يوما..

ولم يكن ذلك هروبا.. إنما هو الخضوع (للعلاج).. وطالت (الغربة) حيث لم أجد تلك التي أحالت (الغربة) إلى وطن.. والوطن إلى (علاقة) كأنما (التعلق) أحاله السكن إلى (نظرة) تستشف الجمال.. تشرب من رؤيته.. تسمع اللفظة الأعجمية ترتاح لها الأذن.. كأن لها رنينا جرسه عربي.. فالفهم للفؤاد هو معنى (اللغة) فقد يستسيغ الفؤاد لفظة أعجمية يرسلها الجمال.. وقد ينصرف (الفؤاد) عن كلمة عربية لا يحس الفؤاد بتأثيرها..

فالعين آلة موصلة.. والأذن آلة كذلك.. أما الفؤاد فهو الذي يتلقى ما يصل إليه.. يزنه فيختزنه..

كنت حريصا أن أراها ولكنهم منعوها.. لأنها الأنثى يحسبون أنها مطلب الرجل وقد نيف على السبعين مطلب لا يحبونه لها بينما لم أكن كذلك، حين كانت (العذراء) كنت (العاشق) العذري.. وحين أصبحت الأم كنت الأب (الفطري).. ما لمستها بيد.. وما لامستها بأيد..

فالقوة تضمحل أمام الجمال.. يستحيل إلى قوة جديدة.. في طهارة (العفة) وعفة (الطهارة)..

كانت مليحة.. وكانت جميلة.. وكانت (فقيرة) فالفقر كما يقول (علقة المري) حارس الجمال..

ففي إحدى الزيارات التي رحل بها (علقة) المري الغطفاني إلى عبدالملك ابن مروان.. فقال له عبدالملك وكان يعرف أن (علقة) كثير الحفاظ على بناته.. لم يزوج منهن إلا إلى (العلية) من الرجال.. لعل منهم بعض بني أمية..

قال عبدالملك لعلقة: ماذا تركت لبنتيك في الصحراء من حارس يحرسهما؟

قال: لقد تركت لهما الحارسين (العري والجوع) فالعارية الجائعة (لا تتبطر) ولا (تشتهى).. وليس فيها مطمع..

لقد كانت هذه الجميلة التي لم أرها إحدى بنات علقة.. ولو لم تصهرها الصحراء.. وإنما هي من بنات الثلج.. لا تغطيها البرودة.. وإنما الإنسان فيها والجسد منها.. والدم الفوار يحميها من (الثلج).. وحين أصبحت (الغربة) غربة فيها الكثير من الكربة أخذت أنشد:

وارحمتا للغريب في البلد النازح ... ماذا بنفسه قد صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا ... بالعيش من بعده وما انتفعا

لقد كان المرض بالغيبة عنها وليس بالجفوة منها.. مرضا جديدا أعفاني من الانشغال بالمرض القديم..

كان مكان ذلك شفاء بينما هو داء على حد قول أبي نواس.. وداوني بالتي كانت هي الداء..

وحين رحلت من تلك القرية.. من تلك الضاحية أنشدت:

لعمرك ما فارقت بغداد عن قلى ... لو أنا وجدنا من فراق لها بدا
كفى حزنا ان رحت لم أستطع لها ... وداعا ولم أحدث بساكنها عهدا

نفثة مصدور.. لا وثبة مغرور.. إنما هي غناء ينزع إلى الألم.. و ينتزع المسرة بالذكرى.. والذكرى حلوة.. فقد عرضت وهي تمرضني أن تعطيني صورتها فرفضت.. وعجبت من (الرفض) فأتيت بالمترجم أقول لها: حين آخذ الصورة منك تنحصرين فيها.. فلا أراك إلا على وضع واحد.. وأريد أن تكوني الصورة التي تشغلني دائما.. فأراك في كل الأوضاع التي لم تبد منك.. وإنما خيالي يبديها لي..

إن الصورة حصر أرفضه.. وتصوره تنويع أعيش فيه.. أراك في كل لحظة في أوضاع متعددة فهل أجد في الصورة تلك (العنود) التي أمالت عنقها في النفق؟!

ولكن التصور يريني الكثير والكثير مما أراه لك.. وفيك.. ومنك.. وبك..

أعيش نعمة هذا الخيال، ولا أريد أن أعيش نعمة الحصر في صورة على ورق.

• ــ قال: ليس هو الحب، وإنما هو حب الحب. بكيت من أجل الغالية، ولم تكن غاليتي وإنما هي الغالية عند الغالية.. بكيت من أجل أن غاليتي باتت حزينة تبكي غاليتها، ولا يحزن العاشق إلا أن يرى حبه يبكي من أجل حب.. هو حب الأخت لأختها، لأخيها، لكل غال لديها. لم أشعر بغيرة: أرى الحبيبة تبكي لغيري، فالغيرة من بكاء الحبيبة لأحبائها لا أستسيغها.. فاحتكار الدمعة في عيني الحبيبة فيه التنكر لقوة الحب، وأنا أرى في الحبيبة أن تكون قوية حين تضعف، وضعيفة حين تقوى، لأن الحب في أوج قوته ضعف وفي ضعفه قوة.. كأنما هو اعتدال المزاج، هو يقبل الألم، بل الألم غذاؤه، ولا يستريح للغضب ففي الغضب فناؤه!

ــ ثم قال: كيف تعرف عني ذلك.. حتى لا أحسبني إلا أنت؟!

ــ قلت: أفلست أنت أنا؟أنسيت كلمتي لك: (إن تكن أنت أنا، وجعلنا الزمنا قطرة في كأسنا)، ثم أنسيت كيف قلبت المثل: ويل للشجي من الخلي، وجعلته: (ويل للخلي من الشجي)؟.. فالخلي ــ البعيد عن حبك لمن تحب ــ هو الشجي بحبه لمن أحب!

ــ قال: كلام فيه لغز.. تريد أن تتستر على ما أنت فيه!

ــ قلت: أتعني.. تلك (التهامية من نبت السراة)، أم تعني: (ماسحة البلاط)؟!

ــ قال: وأعني أكثر من ذلك.. تلك التي احترقت، وتلك التي ضاع وجهها في حريق البارود!

ــ قلت: نعم.. (التهامية) لا أدري عنها، (والمحترقتان) ذهبتا، فما بقيت إلا (ماسحة البلاط).. رحلت إليها حتى أراها، فكان قصد الرحلة للعلاج، وكان

معنى الرحلة أن أراها، ورأيتها .. فلم تكن (ماسحة البلاط)، ولا كانت تلك التي مسحت الغربة من فؤادي، كأنما نسيت حين رأيتها أن لي وطنا غير ذلك الكرسي الذي جلست عليه! .. رأيتها أماً لطفل، وكنت أحسبها لم تصبح أماً .. حينذاك انقلب العشق إلى إشفاق، كأنما العشق قد مر في تلك اللحظة، لقد عشقتها أماً ترجع طفولة العجز فيّ .. كأني أنا و(توفيق نسيم) على طريق واحد، وحين رأيتها طفلها شاركني أمومتها، أشفقت، ولا تحسب أن العشق إذا ما انقلب إلى اشفاق يموت .. بل الحياة فيه أن يكون الإشفاق حبا جديدا، فذلك أن طلبت الرحمة من أمومتها، فإذا بي أعطيها الرحمة من أبوتي!

ودعتها قائلا: أنت ابنتي وقالت: أنت أبي!

وتذكرت هذا البيت:

لعمرك ما فارقت بغداد عن قلى — لو أنا وجدنا من فراق لها بدا
كفي حزنا ان رحت لم أستطع لها — وداعا، ولم أحدث لساكنها عهدا

وتذكرت قول شوقي:

الحياة الحب، والحب الحياة — هو من سرحتها سر النوى
وعلى صحرائها مرت يداه — فجرت ماء وظلا وجنى!!

وأخيرا .. ما أحلى وأبهى طغيان الجمال، وما أسوأ طغيان الجميلة!!

* ومشيت من سريري أتحامل على عصاي .. أصل إلى عيادة الطبيب، ورأيتها تمسح البلاط، كأنها تعطره بشذاها. فالأناقة ليست في إغراء الجمال، وإنما هي في نداء الفتنة يصنعها الجمال في العاشق!

وحسبتني أمد يدي بتلقائية الطبع .. أرفع ثوبي عن البلاط، فارتدت اليد لا تجدني ألبس ثوبا، فقد كنت في بلد لا يلبس الثياب.

ورأيتها كلها .. بالنظرة الخاطفة، حتى إذا انتهيت لم أتصنع الإشفاق، وليس هناك معنى للشماتة. فالإشفاق لذة النذالة والشماتة نذالة اللذة! وابتعدت كأني لم أرها. و بعد يوم أرسلوها تذهب بي .. أمشي وراءها في النفق، أصل إلى طبيب، ومشت (دليلة) فإذا بي أراها كلها حتى إذا أمالت جيدها على كتفها الأ يسر، كأنها

تصيخ أذنها اليسرى أن تسمع الصمت في النفق.. لتسمع بأذنها اليمنى النطق الصامت.. تجرني إليه، كأنما هى تمشي باثنين: جسدي ومشاعري، فالإغراء كثيرا ما ينقص به الجمال.. أما عرض الفتنة من بعضها بعضها فرسالة الجمال إلى الذين يعشقون الجمال.

حين أمالت جيدها كنت أراها الظبية العنود، فإذا بي أراها: بعضها بعضها!

تلهمني أن أكون التابع في المشي، والمستعبد للجمال، كان كل بعضها على نسق ليس فيه إلا تنافس البعض للبعض، فإن تنافر الجمال في الطبيعة قد طبع على الجمال.

ماسحة البلاط.. تخيلتها تلك العظامية التي تغجرت. سرقوها طفلة، فغجروها تلعب بالعنز.. وتخيلت أني (أحدب نوتردام)!

كانت صاحبة العنز تعيش في طهر العفة لأن العنزة اللعوب تعطيها بعض ما يقيها أما هذه ـــ ماسحة البلاط ـــ فلم تعط قوتا إلا أن تمسح البلاط، ولعلها بذلك تفوقت على (غادة الكاميليا) فلئن قهروا جسدها بالشغل الشاق، فإنهم لم يصلوا بعد إلى أن يقهروا عفتها، أو أن يذلوا طهرها. أما غادة الكاميليا، فأجاعوها.. حتى إذا قهرت العفة وأذلت الطهر ترامى الرجال حول قدميها. منعوا عنها الرغيف، فإذا هم لا يمتنعون أن تكون السيدة عليهم.. يبذلون الجواهر تحت قدميها.

كل ذلك تخيلته، وكأنما الصمت المطبق بيننا ـــ لا أعرف لغتها ولا تعرف لغتي ـــ قد استحال إلى كلام جديد بابتسامة حلوة وجهتها إلى وجداني، فإذا بي أراها كلها، وأشبع من رؤيتي لها حين رأى الفؤاد بعضها بعضها، كما قال بشار: (إن الفؤاد يرى ما لا يرى النظر)!!

رأيتها كلها بالباصرة العشواء وقتها بعضها بعضها بالبصيرة الملهمة العاشقة.

لقد تركتني أحب الغربة.. حتى استحال الوطن إلى علاقة!

كم هى ـــ في رقتها كلها ـــ قد أصبحت قاسية والحب يصبح سيدا بالقسوة منه وعليه، وعبدا إذا ما تراخت حبال القسوة إلى لين، أو ملاينة!

إن الحب لا يعرف إلا أن يكون السلطة.. يتوزعها سلطانان: الحبيب،

والمحبوب، فالحب بلا سلطان فوضى شيوعية.

* لم تكن ظبية من ظباء الحمى، وإنما كانت ريما غسلها الثلج، عاشت في أحضان (الألب) ولعلي بما يعجزني عن الإباحة أن أبوح بقطعة من ورقة ورد كتبها الرافعي:

ـ (أريدها لا تعرفني ولا أعرفها.. لا من شيء إلا لأنها تعرفني وأعرفها.. تتكلم ساكتة، وأرد عليها بسكوتي، صمت ضائع كالعبث، ولكن له في القلبين عمل كلام طويل.

الفرح بالجمال لذة تقتل نفسها، ولا يمسك على الجمال روح النعمة خالدة في القلب إلا الحزن به: كيوم الغيم.. ترى في سمائه قطعا كأنها الهاربة من الليل، تختبىء الشمس فيها ثم تسطع من بعد سطوعا يخيل إليك أنها ما توارت في خيمة الغمائم إلا لتنضو غلائلها الشفافة وتتعرى. يريد الجمال المعشوق أن يثبت فينا فيغيب عنا. إذ كان بذله يفنى منه على قدر ما يعطي، فامتنع وعز مناله.. كان جماله في نفسه بمعانيه، وما لا فينا بالمعاني التي هي فينا. وكان له من اجتماع الحالتين حالة جمال قالت هي في ألم الرغبة المستمرة، أو ألم الغيظ المجنون: ومتى خلق لنا الجمال في قصر الزمن ولى الزمن، ومن المتاع بالحسن المذاب بتمنيه.. فقد ارتفع عن إنسانيتنا وجاءنا من ناحية سره الإلهي)!!

وما أجدني بعد الرافعي إلا أن أتغنى بقصيدة الشريف الرضي أنشرها أذكر بها الذين لا يتذكرون ما عندهم من تراث:

يا ظبية البان ترعى في خمائله	ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه	وليس يرويك إلا مدمعي الباكي
هبت لنا من رياح الغور رائحة	بعد الرقاد عرفناها برياك
ثم انثنينا إذا ما هزنا طرب	على الرحال تعللنا بذكراك
سهم أصاب وراميه بذي سلم	من بالعراق، لقد أبعدت مرماك
وعد لعينيك عندي ما وفيت به	يا قرب ما كذبت عيني عيناك
حكت لحاظك ما في الريم من ملح	يوم اللقاء فكان الفضل للحاكي
كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا	بما طوى عنا من أسماء قتلاك

أنت النعيم لقلبي والعذاب له ... فما أمرك في قلبي وأحلاك
عندي رسائل شوق لست أذكرها ... لولا الرقيب لقد بلغتها فاك
سقى (منى) وليالي (الخيف)ما شربت ... من الغمام وحياها وحياك
إذ يلتقي كل ذي دين وما طله ... منا ويجتمع المشكو والشاكي
لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا ... ما كان فيه غريم القلب إلاك
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى ... من علم العين أن القلب يهواك
حتى دنا السرب ما أحييت من كمد ... قتلى هواك، ولا فاديت أسراك
يا حبذا نفحة مرت بفيك لنا ... ونطفة غمست فيها ثناياك
وحبذا وقفة، والركب مغتفل ... على ثرى وخدت فيه مطاياك
لو كانت اللمة السوداء من عددي ... يوم الغميم، لما أفلت اشراكي

* ونشأ طفلا يلعب معها، ونشأت عروسا لا تنسى أنها لعبت معه، تبني بيتا بالطين والحجر، وكأنه صبي المعلم البناء يناولها الطين والحجر. هى لا تعجن الطين ولا تجمع الحجر وإنما هويشاركها، يصنع كل ذلك، أما هى فتبني البيت الصغير، ولو تعلمت لكانت مهندسا معماريا، وحين تعلم هو كان مهندسا بيانيا.

وحين يتعايش الطفل مع الطفلة على أساس نوع من القرابة أو الجيرة ينمو بينهما حب يعيش طويلا، لأنه سار على نهج الطبيعة التي نظم الله بها الحياة والأحياء، فكل نبات ينمو ببطء تطول حياته، كأنما نمو الحب بينهما بذرة شجرة أو نواة ثمرة احتضنتها الأرض فإذا هى تنموشامخة تعيش طويلا إذا ما تركها الإنسان لحياتها لا يعبث بها إذا ما احتطبها.

وأصبح الطفل فتى وأصبحت الطفلة عروسا تزف إلى عريسها، وكانت ليلة زفافها قد انسرقت نفسه من نفسه، كان ليلتها جمادا لا يتحرك، كل ما في وجدانه قد هرب، أو أنه اغترب، يسافر في نومه فقد غشيه النعاس حتى ان زفة العروس لم توقظه. أهي غيبوبة الغم أم غياب المشاعر حين يتأزم الطرف بها؟

وغابت عنه طويلا لا يراها، نسيها وما نسيها، يتناساها ليذكرها، لكنه تعود أن يذهب إلى بيتها صباح العيد، يطرق الباب بحنان، تفتح الباب قليلا، تمد أصابعها يصافحها، كأنها لا تريد إذا ما احترقت الأصابع أن يحترق وجدانها، ومضت سنون

لا يراها إلا في يوم عيد خلف الباب .

وترملت .. مات زوجها ، وفي حضانتها طفلان منه .

وزارها يعزيها فتقبلت العزاء ، تارة ترخي وجهها وتارة تلتفت إلى بعيد ، يتحجر الدمع في عينيها ، فيسأل نفسه : أمن أجله تبكي أم من أجل ترملها ، أم ثقل المسؤولية على الطفلين ؟!

و بعد انقضاء العدة زارها ، فإذا هي تنتصب ، كل عضلة من عضلا تها تريك أنها صلبة ، وترى في عينيها الصبر والسلوان والشعور بالمسؤولية .

وأعدت فنجان شاي ، فقالت وهو يشرب من رؤية حلاوتها ومن حلاوة شايها : هذه آخر زورة لك ، أرجو ألا تأتي .

قال : هكذا كرهت ؟!

قالت : هكذا أحببت . ما كرهتك قط ، بل كل يوم يزداد حبي لك ، كأنما أنا أنت في تصاعد الحب منك لي ومني لك ، ولكن .. أخشى أن تفكر في الزواج مني وهذا ما أرفضه ، لأني لا أريد أن أحطم أماً لابنتك ، كما لا أريد أن يطأ زوجي عواطف أبنائي ، فزوج الأم على الأ بناء وطأة ثقيلة ، وأريدك ألا تحضر لأقطع ألسنة الناس . يقولون ما شأن هذا الرجل يتردد على هذه الأنثى ، أخشى كلامهم وأخشى أكثر نظرة ابنيّ إليك ، لا يعرفانك إلا غريبا ، وحتى لو عرفا أنك الحبيب فإنهما يعيشان في كرب أن تكون أمهما لغيرهما .

وأرسل تنهيدة ودمعة من قسوة كلامها وصدق كلامها وصداقة الحب .. فلو لم تكن صادقة في حبها لاسترخصت نفسها ألا تبوح بهذا الحب عن طريق القسوة ، وامتنع عن زيارتها ، ولكن بلغه أن وجهها قد احترق فأسرع يعودها ، يسأل عن صحتها .

قالت : أنا شاكرة لهذا الحريق ! قد أخذ مني جمال وجهي لأعيش في راحة من التفكير بالزواج ، ولأطرد الكثير من الخطاب ، إن وجهي الآن جميل في عيني الابن والبنت ، لأنهما عرفا أني لهما لا لغيرهما .

تعال زرني بين الحين والآخر فقد عرف ابنيّ أنك أحد أقربائي كما عرفا أني لهما وحدهما بهذا الجمال المشوه.

قال: إن جمالك لم يشوه في وجداني، ولكن السنين أخذت مني وأخذت منك. وما أقل عطاءها حين احترق الوجدان بالحرمان، فأنت وأنا قد أصبحنا في عداد الزهاد، نحب الحب ولا نقترب من الحبيب.

وبعد أن اغترب عن مسقط رأسه سمع أنها ماتت، ولكن حبها لا يزال حيا، فالوضع كما يقول أنيس منصور (الحب الخالد هو الحب الفاشل!).

فيا حبها زدني جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

* سؤال قد يكون محرجا لأني لا أستطيع أن أطرح تعريفا له بينما هو لا يخرج عن كونه صفة عادية يرغبها كل الناس، وهي في الوقت نفسه مطلب غير عادي يعز على كثير من الناس.

قال لي من أملي عليه: إنك كتبت عن الحب والجمال والجوى ولم أرك قد كتبت عن السعادة، فلماذا لم تكتب عنها؟ ألأنك تتمتع بها وتخفي أسرار وصالك إليها أم أنك ذقت بعضها وأذاقتك بعدها؟!

قلت: إن السعادة ثوب فضفاض، ما يسعدك قد يشقى به غيرك، وبعض ما تشقى به قد يسعد به غيرك، فالسعادة حرفتها المفارقة، والمتعة بها المعانقة، والمفارق قد يعود إليك أو تعود إليه، والمعانق قد يعانقك في طراوة إذا أحسست أن عناقه بدأ يتسرمد ترفض العبودية لأي سرمدة حتى لو كانت السعادة!

فالسعادة التي ينبغي أن يعيشها الإنسان ليست قوامها الترف، وليست شقوتها الشظف، هي شيء لا يأتي من خارج نفسك. إن بعض الذين يعيشون الشظف لا ترى في وجوههم إلا السعادة، لأن ما في داخل النفس طرد الاهتمام بما يكون خارج النفس. وبعض المترفين قد يتذوقون السعادة فيما ملكوا إذا أحسنوا فيما سلكوا. إن الترف حين يستوجب إلى بطر يتوهم صاحبه أنه سعيد، بينما نظرة الناس إليه تأتيه بما هو خارج النفس بتلك النظرات التي تحتقر البطر ليشعر صاحبه أنه موضع الاحتقار، وشرّ ما في الشقوة أن يحتقر إنسان، وخير ما في السعادة أن يحترم الإنسان غيره ليحترمه

غيره، فتبادل الاحترام إثبات للقيمة وارتفاع بالقيم، وتلك السعادة التي تتزاوج مع متعة النفس بما هو داخلها، بهذا التزاوج يفتقد السعيد المفارقة حتى لا يكون الافتراق بينه و بين من سعد بهم وسعدوا به.

فالسعادة منحة تطمئن لها النفس، لكن المتعة بها تكبرحينما يطمئن الإنسان إلى خلقه يحدده سلوكه مع الناس.

أنا سعيد بكثير مما أشقى به لأني تعلمت احتراف الطرد.. سعيد بأني مع الناس للناس، لا أبخل بعون وإن لم يشكر، ولا أرفض الشكر لمن أسدى معروفا إليّ، فشاكر المعروف هو القادر على صنعه وناكر المعروف هو العاجز عن صنعه، الباخل به، والقدرة على شكر المعروف وصنعه سعادة.

إذا أردت أن تكون سعيدا فإياك أن تكره أحدا، ولـــو شعرت بمن كرهك، لأن الكراهية عطاء كالحب! لأنها اشغال للوجدان، وجدانك يشغل بمن تحب وأنت تشغله بمن تكره، فالكراهية صفة يشقى بها السعيد.

* الغريب عن وطنه يتمسك بالشيء القليل باعث المسرة يتلهى به عن كربة الغربة، ولكنه حين يفاجأ بشيء لم يحسب له حسابا تتصعد المسرة به إلى وضع يراه قد أصبح نوعا من الهيستريا.. (الجنون)!

ولا أريد أن أفجع العقلاء فما من عاقل إلا وتمر به هذه الحالة من فرحة غامرة أو ترحة محزنة، كلاهما يحدث مسا من هذه الجنة، في غمرة تلك اللحظة.

تذكر نجدا والحديث شجون ... وجن اشتياقا والجنون فنون

سافرت إلى الهند في عام ١٣٥٢ هـ رفيقا للشيخ محمود شو يل يرحمه الله، و بعد شهر ونحن في (ملتان) نعد الشاي ظهرا ونحن قبالة الدرج وإذا بعقالين يصعدان الدرج.. السيد عبدالله طه والسيد كامل عبدالجواد، لم أشعر إلا أنا أقوم واقفا أضحك بصراخ، غمرتني الفرحة بجنة، ما أحسبني إذا وصلت إلى المدينة كأمر متوقع وحين أرى زوجي وابنتي أن أكون على حال من هذه الهيستريا. ودار العناق، لحظات مرت وأنا في غمرة هذه الحالة، أضحك وأضحك، كل ما في جسمي يرقص.

وحين جلسنا هدأت وكأنه لم يكن شيئا، وانصرفا، وما شعرت بوحشة حين

غابا، المفاجأة في الغربة ورؤية المواطن قد سببت ذلك.

ومضت أشهر ونحن نأكل (الشباتي) و(الدال) فأوحشني (الخمير) وأنواع الأجبان والأسماك، وحين وصلنا إلى (كلكتا) رأيت الشيخ أبابكر أبا النور المدني وأبا الكلام آزاد الزعيم الهندي والمدني المكي، فلم أفاجأ ولم أتهستر، ولكن هذه الجنة من الفرح رأيتها في السوق التجارية حين أخذني عبدالأحد شويل ابن الشيخ محمود إلى السوق الكبير (سوبرماركت)، فما شعرت إلا وأني أهتز فرحا.. أضحك وأضحك.. رأيت أنواعا من الخبز الخمير والليمون وعلب السردين وأنواع الجبن، شيء حرمت منه ستة أشهر، حين وجدته صرخت في رفيقي: (اشترلنا من كل شيء) فقد كانت اللقمة من أي شيء هي كل الشيء ما ألذ طعمها!

ووصلنا (رانجون) واستوحشنا قليلا وإذا بمضيفنا السيد داود آتيا يرحمه الله يأخذنا في السيارة إلى المطار، كان الناس حديثي عهد بالطائرات، أباح لهم المطار أن يزوروه وأعدوا طائرة يركبها من يشاء بروبيات عشر تحلق فوق المدينة، يعرف أن الطائرة مركب لطيف، وقفنا في المطار ننتظر هؤلاء الذين يطيرون و يعودون، الهواء جميل والناس عليهم لمعة الترف، فرؤية الترف في صاحب الشظف قد تكون ممتعة إذا كان من الذين لا يحسدون الناس على ما آتاهم الله، وفي إحدى اللفتات رأينا فتى في يده كاميرا يلبس قميصا أخضر مغللا بزهرة بيضاء من الفل والياسمين ولا يلبس بنطلونا وإنما قد أطلق على نفسه أن يلبس الشورت، نظرنا إليه يعد الكاميرا يستقبل الطائرة وكان جميلا جمال نصر بن حجاج، فتنة تمشي على الأرض.

وهبطت الطائرة، فأول من نزل منها فتاة تلبس ثوبا أخضر كقميصه على جبهتها صبغة حمراء هندوكية، نظرنا إليه وإليها فإذا هما توأمان من شدة الشبه بينهما، التقط لها صورة، أمسك بيدها، نحن لم نر الصورة في الكاميرا ولكن انطبعت لهما صورة في الوجدان، فقد كان الجمال رائعا لم أر لونا كلون الذهب يسطع ببياض مصفر صفرة الياسمين كلونها.. كلونه!

سكت وسكت الشيخ محمود سكتة اجلال لا نزوة فيها ولا هيستريا، وكأن مضيفنا شعربما بنا، فقال: (هيا).. وكان ذلك ضروريا ليخفي ما بنا ولأن الجميلين قد ذهبا كأنما أخوها قال لها أو هي قالت له: (هيا)، ورجعنا إلى المنزل وصلينا

المغرب وأكلنا العشاء وتمطى كل منا على سريره، ولا أدري كيف ذكرنا المنظر، فإذا بنا نضحك بصوت عال، غمرتنا جنة من الفرحة حيث تمتع الوجدان بمنظر جميل، ومكثنا نضحك طويلا ونحن نتكلم بكلام لو دوّن لكان عجبا، وهدأت قليلا فقد ذهبت الجنة، أقول للشيخ: (لقد أنستنا هذه صلاة العشاء، ولعلك نسيت راتبك كل ليلة) فاستغفر وقام يتوضأ كما توضأت، فالوضوء غسل للنفس، أنسانا ما كنا فيه، وبعد صلاة العشاء قام الشيخ إلى تهجده، وصار كل منا يطرد أن يذكر ذلك بعد.

فالغربة فاعلة ذلك والرؤية والمفاجأة لما يسر انفعال يحدث ما وصفناه، فهل جرب قارىء ذلك؟!



الهروب

كنا ثلاثة.. نجلس في (الكافيتريا).. فجاءت إحداهن، فإذا صاحبي يقول لي: دعني أخرج.. لا أطيق أن أجلس.

ــ قلت: ألم تعجبك القهوة؟!

ــ قال: لا.. إن من جاءت بها هي التي لم تعجبني لقد أحالتني إلى حيوان، لأنها إذ ضحكت، رأيت جسدها كله يضحك. كل عضلة من عضلاتها ضاحكة.. فيها نداء الأنثى للذكر لا أطيق أن أراها.

ــ قلت له: اجلس، وتبتل.

ــ فقال: ذلك شأنك من العجز.. فما أرخص المتع التي تعيشها، أما أنا فإنسان آخر.. لازال في داخلي الحيوان الشرس.

وقام.... ولكنه حين التفت، رأيت دمعة في عينيه.

ــ قلت: إن الدموع قوة تقهر الحب.. بينما هي من قهر الحب!!

رأيٌ !

ليس عندي وقت للكراهية والانفعال ، ولا للحب ولا للغضب ولا للحزن . . فتلك أثقال تحملتني شابا فقد كنت حملا عليها ولا أستطيع أن أتحملها شيخا فلست مطالبا بالوفاء لها .

وحتى الذين أحببتهم كل الحب إلى درجة أني فكرت يوما في الموت فعز عليّ أن أموت لئلا أكون فقيد هذه الحبيبة . . ارتفعت بحزنها عليَّ فوق أن أكون الحزين على نفسي . فقلت لها مرة : أيتها الحبيبة . . أنت تحسنين إليّ بهذه الجفوة لأن ذلك يرفع عني أثقال الحب ، لقد كنت الخلاص حين أصبحت الجفوة ، فلك الشكر مرتين !

الياسمين !

وأخونا الشجي كنت الخلي قبل أن أكون الشجي بشجواه، زارني عصر يوم يبتسم فيه الغيم بالبرق قبل أن تبكي دموع الغيم يحيا بها الحياة. وجلس يكر به النوح المكتوم فأعجـــزه عن البوح، فإذا هو الشيء قد تقلص كل الشيء فيه، كأنما البوح قد رضّه رضا، فوجدتني أثيره لأطعمه البوح، فالبوح علاج لمرضى الحب!

ــ قلت له: دعني آتيك بعطري الجديد.

ــ قال: هات.. عطّرني.

فأنشقته عطر الياسمين، فأسرعت الدمعة في عينيه، كأنما مسه بارق الذكرى.

ــ قلت: ما بك؟!

ــ قال: لعلك لم تعرف من قبل أني أحب الياسمين اللون، بصفرته النـــاعمة في الزهرة الندية، ولا أحب الياسمين العطر. فالياسمين اللون أعتز به ولا أبتزه، وهو يذكرني بصورتها.. بيضاء قد ابيضت صفرة الياسمين في وجنتيها. أما العطر.. عطر الياسمين.. فما هو إلا عصارة أحالت الزهرة، أرخصت جمالها، يبيعون عطرها بثمن غال بينما هى الزهرة الأغلى.. قد لا أشمها ولكن لابد أن أراها..

فاللون عندي هو هى!

إن عطر الياسمين تجارة، والجمال نسترخصه إذا ما كان يستحيل إلى تجارة. فكم من الجواري في سوق النخاسة كن من الجميلات، بعضهن وردية وغيرهن قمحية والسيدة فيهن هى التي لها لون الياسمين! ولكن بيعهن في سوق النخاسة بخاسة، لا نرى من اشترى إحداهن عن حب، وإنما عن متعة الذكر بالأنثى!

أبعد عني عطر الياسمين! إنه يذكرني باستعباد الجميلة. أنا لا أحب الوردية، ولكني أحب الياسمينية! كما أحب الملاحة في القمحية. ألم تسمع إجابة عمر ابن

أبي ربيعة حين سألوه عن البيضاء الوردية (عائشة بنت طلحة) وعن الذهبية القمحية (سكينة).. قال:

ــ (عائشة أجمل وسكينة أملح)!!

إن عمر بن أبي ربيعة شاعر يتفنن، وفنان شاعر. لقد كان كما قال: طاهــر الذيل، شاعر قال ما لم يفعل!

دمــوع الحُبِّ !

ــ وسألني .. ما رأيك في الدموع ، هل يرسلها الحزين والمبتلى أم أن هناك دموعا تذرفها عين إذا ما نعمت بمتعة ؟

وفاجأني هذا السؤال ، ولم تكن الفجاءة قد تأتت من تحجر الدموع في عيني وإنما كانت تحمل بعض الفجيعة من هذا السائل الطري الذي عرف الحب وصالا ولم يعرفه بعد هجرا . فطعم الوصال لذة تسعده وطعم الهجر متعة رغم الشقاء ، بالشقوة قد تكون فيها متعة البحث عن الأسباب التي جعلت الحبيبة تهجره . أهي فيه منه ؟ أم هو منها بعوامل أخرى ؟!

إن الدموع رسالة يبعثها الوجدان ، يستفيق بعدها العاشق ، يكسب منها لذة الذكرى من عمق الوصال أو متعة الحسرة من شقوة الهجر .

المحب إنسان ، ولا متعة لإنسان إلا أن يكون في حلبة المتناقضات ، فالسرمدية على حال واحدة املال ، وتقلب الأحوال فيها نضوج التجارب وتجارب النضج . فالمودة بين حبيبين يرسخها الزواج ، وبين المودة والحب خيط رفيع . فالحب المستهلك لن تأتي منه المودة ، والمودة المتهالكة في النظرة والعشرة والأمومة والأبوة ترسيخ للحب ، فلا حب بلا مودة ، ولكن قد تكون المودة دون حب يسبقها . فالحب صانعها والمودة تصنيع جديد له .. تزخرفه .. تجعل منه جديدا حينما يتراشقان ، فالشفة على الشفة تطبع قبلة .. قال عنها الرافعي بما معناه :

والشفتان حين تلتقيان لا يعرف منهما ما قاله الحب ، فالشفة على الشفة قول بالإشارة أو إشارة بالقول : أنا الحب !

ــ من هنا تتساقط دموع الوله من عمق المتعة أو هي من خوف ألا تكون بعد ، فالدموع منها النقيضان تتزاوج أحيانا وتزدوج حيناً ، لأنها قد تكون شكران الوصال

يطغى على الوجدان كأن الفؤاد يعربد في نفسه فيرسل الحب دمعة شاكرة.

وقد تكون الدموع من حسرة الشقوة أو شقوة الحسرة حين تجفو المودة الحب، ولو كان ذلك بعض الوقت. فالشقوة الحسرة تدفع الوجدان حين لا يعربد الفؤاد لأن يرسل من سكونه دمعة على العين. فإذا ما بكى أو بكت الحبيبة يجري التنفس في وجدان كل منهما تعبيرا جديدا عن الحب بعين تدمع، حتى إذا استفاق الفؤاد كان العتب وكان الاعتذار ليكون الوصال، وحذار من الإنذار! فالتهديد من الحبيب والحبيبةِ تبديد للحب والمودة.

ــ فالدموع شموع.. في كلا الحالين تضوع ولا تضيع.. لأنها ضوء جديد يشرق من الوجدان!

الواو في اللغة الشاعرة

وتوالت الأسئلة من كثيرين ذواقين لجرس البيان، مؤيدين، يذوقون طعم البيان حين يكون الجرس رنينا منغما، وبعضهم لا ينكر ذلك إنما يتهمني بأني أتطرف حينما أبدأ في كثير مما أكتب بالواو.

فهؤلاء كانوا لي ولم يكونوا عليّ، لأنهم أبعدوني عن التطرف. لقد استسغت هذه الواو، سبقني إليها الدكتور طه حسين فلعلي أستعيرها منه، فنحن كتّاب الإملاء لأحرفنا جرس، كأن ما نمليه ليس حرفا على قرطاس وإنما هو كلم على المنبر.

إن هذه الواو ما أكثر معانيها، واو العطف، والقسم، والاستئناف والمعية والحال والجماعة، فإذا بدأت بها أدير سمع القارىء إلى أن يقرأ بالأذن، كأني التفت به إلى أن ما يقرؤه الآن ما هو إلا عطف على كلام سبق.

ولا ضرب أمثلة تقييما لهذه الواو فرضت قيمتها بيانا من البيان فإذا ما قلت: جاء زيد وعمرو، أثبت المجيء لهما سويا. وإذا قلت: جاء زيد وعمرو لم يأت، فإنك تفهم من هذه الواو ومن أتى معنى لم يكمل إلا بـ(أتى) فإنه يدعوك بأن تفهم أن عمرا مطلوب اتيانه.

من هنا يأتي أن المترادفات ليست ذات معنى واحد، وتعالوا معي إلى هذه الواو في قوله تعالى عن استقبال جهنم للكافرين والجنة للمتقين: (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها..).

فإنك تجد لذة البيان وعظمة الإبانة بهذا الجرس من هذه الواو في كل الآيات التي قبل هاتين الآيتين في سورة (الزمر) حتى جاءت واو (وسيق) تتسق مع النسق قبلها، أما هذه الواو في آية استقبال الجنة للمتقين (وفتحت أبوابها) لم تأت في الآية التي جاء الخبر واضحا مشرقا عن استقبال جهنم للكافرين، ففي استقبال جهنم (فتحت أبوابها) لهم إعلان عن المفاجأة وعن تلقف النار للكافرين، لأنها أعدت

تنتظر هؤلاء تلقفهم ، ذلك بيان عن المفاجأة والتلقف في بيان الغضب على الكافرين .

أما الواو في قوله تعالى عند استقبال الجنة للمتقين فقد جاءت الواو تشعر بالرأفة والجزاء الحسن كأنما رضوان قد أعلن الرضوان يستقبل المتقين ، تفتح أبواب الجنة لهم كأنما هي قد كانت مغلقة أعدت للفتح احتفالا بهذا الرضوان ، فهل أجد من يلومني حين أحب هذه الواو كجرس بياني ، وإن أحبها شاعر من شعراء اللغة ، الشاعر يتغزل في السالف على خدود الملاح حين يتثنى السالف فيسمى ذلك السالف الذي التوى كأنه الواو، فيقول : (واوات الأصداغ) !

أما فرحتى فقد جاءت على لسان الشاعر المبين الأخ غازي القصيبي فهو يسميها (الواو الزيدانية) !

إن كلمتي عن واو (وفتحت) أشرق لي فهمها فإذا أنا أسأل شيخنا أبا تراب عن بعض المفسرين هل تطرق إلى ذلك ؟ فقال لي : ـــ ولم أكن قد عرفت ذلك من قبل ـــ إن الزمخشري محمود جارالله قد تطرق إلى ذلك على نحو ما جئت به ، ففرحت فرحتي الثانية أن أنعم عليّ الله بهذه اللمحة ذقت بها طعم الواو.



من ذكريات الصبا

وأخذ الطفل الجديد في نومة الشيخ العتيد حتى إذا استيقظ نام، ترهقه الأحلام اليقظة، فإذا هو يجتر خيالا أبعد عنه أحلام اليقظة، فالخيال تجسيد لواقع، وأحلام اليقظة تبديد للواقع بالأكاذيب.. أكاذيب الأمنيات..

وتجسّد الخيال أمامه، كأنما الرؤية جسدت حالا كان فيها أيام شبابه، فأخذ يجتر، وإذا هو يفتر عن بسمة صافية مريحة، كأنما الخيال قد أخذه إلى تلك الروضة انشعبت عنها الحرة شعبتين، وقد كانت هذه الروضة يركب حماره إليها كل أسبوع، يجلس في ظل نخلة، كأنما الروضة قد ازدهت على العقيق، فسلبت العقيق أن يكون كما كان.

أصبحت الروضة عقيقا جديدا لا يجد هذا الشيخ، طفله الجديد، نفسه وحدها، وإنما يجد صحابه قد أخذوا برؤية يترصدون وجودها على البئر في ظل النخيل، في الروضة كانت البئر (ماسكة) وهذا اسمها، ترد إليها حاملات القرب، يرتوين من مائها العذب، فالبئر في الصخر صافية، عذبة، فإذا ما وصلن إلى البئر أشرقت عيون الشباب، ينظرون ولا يتكلمون، فالصمت في وجدانهم كلام! حتى إذا جاءت ليلى قيس أو بثينة جميل أرخوا عيونهم، يغمضونها ليروا الجمال كله، فالبصيرة يتجسد أمامها الجمال، والبصر يتوزع أمامه الجمال!

على حد قول (الجرداق) .. (ثم اغمض عينيك حتى تراني)!.

وعندها، وفي إغماضة العين ورؤية البصيرة قد شبع الشيخ بهذا الخيال من رؤية كانت قديمة في شبابه.

وفوق الحمار أخذ ينشد، وكان حفيلا بالمتنبي أنشد هذه الأبيات:

بأبي الشموس الجانحات غواربا ... اللابسات من الحرير جلاببا
المنهبات عقولنا وقلوبنا ... وجناتهن الناهبات الناهبا

النـاعمــات القاتلات المحييا ... ت المبـديات من الدلال غرائبا
حاولـــن تفديتي وخفن مراقبــا ... فـوضـعــن أيديهــن فوق ترائبا
و بسمن عن برد خشيت أذيبــه ... من حـــر أنفاسي فكنت الذائبا
يـا حـبــذا المتحملون وحبــذا ... واد لـثـمـت بـه الـغـزالـة كاعبا
كيف الرجاء من الخطوب تخلصا ... مـن بـعـد مـا انشبن فيّ مخالبــا
أو حـدنـني و وجدن حزنا واحدا ... مـتنا هيــا فجعلنه لي صاحبــا
ونـصبنني غرض الرماة تصيبني ... محن أحد من السيوف مضار بــا
اظـمـتـني الدنيا ، فلمــا جئتها ... مـستسقيا مطرت عليّ مصائبــا

واضمحل الحب !

واضمحل الحب .. ولم يكن ذلك عن الهجر ولا عن الجفوة بل كان ذلك صفوة .. ذلك أن الخريف (الشيخوخة) أصبح لا يعرف الهجر ولا الجفوة، لأن صفاء النفس هو متعة الشيخوخة ، الآن لم تعد تفرق بين الشقوة إذا ما كانت هجراً ، ولا تعرف الشقوة إذا ما تراءت لها دمعة في عين من أحب ، لأن الخريف (الشيخوخة) قد عاد بأنسابها طفلا جديدا لا يعرف إلا أن يحب نفسه .. فالأب والأم وكل الذين حول الطفل وحتى اللعب يتراءى لنا أنه يحبها ، يبكي إذا ما غاب واحد منهما أعني الأب والأم ، أو إذا ما غابت عن عينه لعبة ، أنه لا يبكي من أجل ذلك كله وإنما بكاؤه أنانية منه ، يريد الشيء ، فإذا لم يتحقق يحتال بالبكاء ويحتال حيلة بالابتسامة وهكذا الخريف ..

إن الشيخ أنسته السنون أن يكون كما كان لأنه أصبح هو الكائن بذاته ولذاته طفلا من نوع جديد ..

إن الخريف لم يكن عجز الطبيعة ولا هو شيخوختها ، وإنما هو الفتوة العارمة فيها ، فلولا عطاء الخريف لما كان الربيع .. فمن الجفوة لهذا الفصل تصوم فيه الأشجار وتستعمد الينابيع للفيض أن تجعله شيخوخة يوصف بها إنسان شاخ ، لولا تدفق الخريف وعودة الشباب إلى الشجر لما كان الربيع ، فلا تظلموا الخريف ، ولا تعطوا للربيع طفولة الفصول أو شباب الفصول لتحرموا الخريف من قوة العطاء .

ولكن هو الإنسان إذا ما كتب يستمد الفكر وإن كان عقلا من عاطفة هو فيها حتى ليجعل من عطاء العقل عطاء مستقلا عن أثر العاطفة فيه ، العقل وحده هو كالربيع والعاطفة هي كالخريف فما من فكر ولا عمل عقلي يكون بلا عاطفة ..

ومن هنا لم يعد للشيخ عقل إلا وقد تسربل بالعاطفة التي لا يعرف بها ذاته ، فأثر العقل في الشيخ له أثر أو تأثير لأنه قد نسي أو تناسى كل المؤثرات ..

وحين تهو بر الشيخ لم يكن إلا مودعا للر بيع ومستقبلا للشتاء .. لا للخريف .

وحين يصحو من غفوة النسيان يخشى على ذاته هاجرة الصيف كما كان يخشى يوم كان ر بيعا هاجرة المصطاف .

إنه لا يعرف اليوم معنى العقيق، ولا مكانة للردف عنده، كل المعرفة قد انحصرت في (أنا) لكن أنانية الشيخ ليس فيها سعار، وإنما هى سكون واستكانة لما هو فيه، فلن يتهوبر الشيخ بعد الآن، لقد نسى السمراء والبيضاء وأصبحت كل الألوان عنده سواء..

والشيخ بعد، لا يحسب أن هذه إلا استجابة أو هي إجابة لما كتبته ابنته الغالية، فكل بنات المدينة بناته، تلك نزعة البداوة فيه، إنها هى «أمجاد محمود رضا» كتبت في (عكاظ) عن الخريف يوم تهو بر.

الأم

والطفل أمه كل شيء عنده، كل شيء فيه وكل شيء له، حب الطفل لأمه قسر وطبيعة، لا يمكن أن يكره طفل أمه، حملته وهنا على وهن، حضنته طفلا يرضع منها، فالحنان فيها هو استدرار الحليب من ثديها. وأطفال اليوم يخسرون عواطفهم نحو أمهاتهم إذ لم يرضعنهم.

قد تعذر نساء الغرب ينصرفن عن الأطفال، يذهبن إلى العمل و يتركن أطفالهن لـ(البزازة) فأصبح الطفل له أمان الأم التي ولدته والبزازة التي أرضعته، انقلاب في طبيعة الأم، إن حرمان الطفل من بعض عواطفها يحرمها الكثير من عواطفه.

لقد حرروا المرأة فاستبعدوا الأم حين أبعدوها عن حضانة الطفل. تلك ضرورة العيش في الغرب، وإنها لضرر التقليد حين أصبح داء أصاب أمهاتنا.

وكان الطفل مريضا بذات الجنب، التهاب الرئة، ما عرف أمه حق المعرفة، لم يبلغ الثالثة من عمره ولكنه صحا أخيرا بقبلة وضعها عمه على خده، فلا يزال يحب هذا العم لأنه قبله وهو مريض وأحب أباه لأنه رآه يبكي بجانبه، والآن قد شاخ أصبح يحب أمه كثيرا لأنه لم يعرفها.. يريد أن يعرفها الآن! لقد تناساها طفلا وشابا وكهلا، لأنها كانت حين قبله عمه وحين بكى أبوه جالسة لم تنظر إليه.. ما لمسته بيد حنون، لم ير إلا صفحة خدها، فقامت إلى بيتها ولم يكن الطفل معها، كان في بيت الشعر عند جدته لأمه، ولم تعد فقد أصابتها الدفتيريا، وماتت.. حرموه أن يرى أمه ميتة.

لماذا فعلت الأم ذلك؟ أحسب أنها ما فقدت الحنان والحب لطفلها ولكن لعلها أجبرت أن تتزوج أباه أو لعل المرض شاغلها، هكذا أصبح يعتذر لها.

لقد انصرف عن كل الحب لأي حبيب، ولم تبق الحبيبة لديه إلا أمه حتى حرم منها يرحمها الله رحمة الأمهات اللائي حملن الأطفال وانجبن الرجال.

يا أمي!

ولا أدري كيف وضعتني الوحدة على الوسادة ساعة أن أرحت رأسي انطق الكلمة التي لم أنطق بها وأنا طفل.. (يا أمي)..

لقد كنت طفلا، ماتت أمي ولم أقل لها (يا أماه)، لأنني لم أعرف معنى الأم وإن كنت حظيت بحنان الأمومة، لم أقل (يا أماه) في طفولتي الخضراء وفي شبابي النضر وفي كهولتي، فكيف أقولها اليوم في شيخوختي؟!

وامتلكني حزن كأنما الشيخ قد عاد طفلا جديدا، فالشيخوخة كما قلنا من قبل طفولة مستجدة، أتحدث إلى المخدة وأنا لم أكن قد تحدثت إلى أمي؟

كانت طفولتي خرساء لا عن مرض وإنما لأن أمي ماتت ولم تقل لي (تاتى تاتى خطي العتبة)، أعجزني أن أمشي مبكرا المرض.. الملاريا.. ذات الجنب، حتى إذا مشيت كانت هذه الأمراض التي تواكبت وسيلة لأن أطلب الصحة. قاومت البعوض تجنبت لفحات البرد، أرتاح إلى الكي وإلى كل وصفات العطارين، فإذا الأمراض أعراض، وإذا الأعراض تكونت بها مقاومة.

لم أقل (يا أمي) الكلمة التي يفرح بها الطفل وتفرح بها الأم. ونحن من جيل لا نعرف كلمة (ماما) إنما نعرف (يا أماه).. (يا أمي).. (يا أم). أما هذه الأ يام فأطفالنا قد استعجموا، لا يقولون إلا (ماما).

وكلمة الأب (يا أبي) قد قلتها آلاف المرات، لكني اليوم وإن استعذبت أن أقولها فقد أمضني الكرب إن لم أقل (يا أماه).

وكلمة (يا حبيبتي) لم أجرؤ أن أقولها لواحدة أو لأي أحد بل كنت أقول (يا عزيزتي).. (يا سيدتي).. (يا غاليتي).. (يا فاغيتي) كأنما كلمة الحبيبة قد سلبتني إياها كلمة (يا أماه) التي حرمتها.

ولست جازعا من هذا السلب، فالأم هى الحب، فكأنما هى حين ضاعت مني أضاعت اسمها الثاني (الحب).. اسمها الثاني (الحبيبة).

وانتصبت أبتعد عن المخدة.. أطرد الفكرة الحزينة.. أنادي إحدى بناتي (تعالي يا أماه) فالبنت أم أبيها، وفي شمائل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكروا أنه كان ينادي ابنته فاطمة الزهراء بقوله الكريم وعاطفة الأبوة الراحمة (يا أم أبيها) كما كان يقول صلى الله عليه وسلم لحاضنته سيدتي أم أيمن (يا أماه).

وأخيرا.. لا تنكروا عليّ استعمال المخدة بدل الوسادة فهى مستند الخد. وفي أسبانيا ورث الأسبان هذا الاسم (مهدة) أي مخدة.



بكاء الشاعر

قال المعري:

لا تطلبن بآلة لك رتبة   قلم البليغ بغير حظ مغزل
سكن السماكان السماء كلاهما   هذا له رمح وهذا أعزل

وقال شاعر آخر لعله (ابن نباتة) أو (الساعاتي) إن لم أكن قد نسيت:

رقت لرقة حالتي الأهواء   وحنت عليّ البانة الهيفاء
و بكى الغمام عليّ من أسف   وقد كادت تمزق طوقها الورقاء
أنا ذلك الصل الذي عن نابه   تلوى المنون وتلتوي الرقطاء
وفمي هو القوس الأرن ومقولي   الوتر الشديد وأسهمي الانشاء

وكنت في الهند فابكتني شادية، فقد صحوت مع الفجر فسمعت قمرية نقلت وجداني وعواطفي و بعضي وكلي إلى (قباء) العقيق، لم أك شاعرا نظاما ولكني شاعر إنشاد، فأنشدت:

رب ورقاء هتوف في الضحى   ذات شجو هتفت في فنن
فبكاي ربما أرقها   و بكاها ربما أرقني
غير أني بالجوى أعرفها   وهي أيضا بالجوى تعرفني

إنها القمرية، لم تكن مغامرة ولا مقامرة بكت الفها، فالحمام واليمام والقمارى تعلم العشق، أما أنا الإنسان فما كنت مقامرا وإنما كنت مغامرا فغمرني الشوق لأسرع بالعودة، ولا كرامة لغريب إن لم يكن ملء الجيب.

من الترفيه

وما تكاد تجمعني المصادفة، بالأستاذ الكبير (أحمد المبارك) إلا وجدتني أتعلم منه الكثير، لا يأنف أن يسمعني، وأفرح أن أسمعه.

وجلست بجانبه في حفلة العشاء التي دعتنا إليها الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون بجدة، لنشاركها التكريم لشاعرنا (طاهر زمخشري).

وجاء ذكر الشعر، وجفوة المتزمت أن يقرأ الشعر، أو أن يقوله، فأخذ الأستاذ أحمد يمنح من عد زاخر، فما أكثر محفوظه، وما أرق ملفوظه، قال:

من شعر الأستاذ (عبدالله بن علي آل عبدالقار الأنصاري): أحد علماء وشعراء (الإحساء) المتوفي سنة ١٣٤٤ هـ يصف فيها (وردة):

خليلي ما أبهى وأبهج هذه ... وأبهج منها وردة الوجنات
يقطف هذا بالبنان وإنما ... يقطف ذاك الورد بالشفهات
رعى الله جانيه وإن كان قد جنى ... عليّ بما يجنيه من حسرات

ومن شعر الأستاذ (عبدالعزيز بن حمد آل مبارك) من شعراء (الإحساء) وعلمائها، يصف (شجرة أترج) فيها ثمرة:

وأترجة خضراء ماست غصونها ... بها ثمر قيد النواظر أصفر
تذكرت لما أن رأتها نواظري ... وقد يقتل الصب الكئيب التذكر
عروساً تهادى بيننا في حليها ... عليها رداء مذهب الفرش أخضر

وله قصيدة مدح فيها والده:

وكائن له في وعظه من نصائح ... تذيب قلوبا أودعت قسوة الصخر
وكائن له بين الند من خلائق ... رقاق حواشيها تحاكي الهوى العذري

هذا شعر يدل على أن الأستاذ الواعظ، والمعلم، لهما وقارهما، كما أن لهما أوقات، ينفرج بها الكرب بالمسامرة، والمعايشة الحلوة، بين الأنداد والأصدقاء.

فالوقار ليس تزمتا، والمزاح ليس فيه تفريط، فما أحسن الوسط.

فمن المسامرات التي حضرناها في جلسة مع شيخ، أصدر هذه (الفتوى) عن الشاي، يقول:

«وفرض صباحا وسنته ثلاث، كره الزيادة على خمس، إلا في (قيلة) و(جمع أحبة)..» وكنا في قيلة في بستان (المصرع) على حافة وادي (قناة) في المدينة المنورة، الأساتذة والتلاميذ، فنزل البركة فتيان صغار، وقفز على البركة فتيان كبيران، أخافا الصغار بضربة (الهوبة) فما كان من أستاذنا، السيد (محمد صقر) وأستاذنا (محمد الكتامي) إلا ونزلا إلى البركة.. فانحاز الصغار في جانب، وإذا هما بـ(الهوبة) يضعان أحد الفتيين الكبيرين في ركن، والآخر في ركن ثان، لا يقدران على مصارعة الشيخين بـ(الهوبة).

فأخذ الصغار يصفقون و يضحكون، وابتأس الكبيران لأنهما غلبا من الشيخين.

الأساتذة كانوا آباء، والتلامذة كانوا أبناء.



قسمة ونصيب

وكان أبوه من العلية، وكان أبوها من العلية تجاورا، فهما كتعبير أهل المدينة يسمون العلية (الأهالي) فنشأ طفلا ونشأت طفلة معه، ودخل المدرسة وأدخلوها (المعلمة) تتعلم شغل الابرة على المنسج، تصنع بيديها (اللف) و(التلي) فتأخذ أمه كل ما تصنع حلية لابنها، وتصنع أمها لها زينة (الحجل).

وتآلف الطفل والطفلة وكان الخطأ الذي وقع فيه قول الأم له (نادي عروستك) وقولها لابنتها (هيا نادي عريسك خليه يتغدى معانا).

فشب الحب بينهما، وكانت الأخت الكبرى للبنت تعرف قوة الحب في وجدان أختها ووجدان من أصلوا الحب فيه حين كانت الأسرتان تدللهما (أهلا يا عروسة).. (أهلا يا عريس).

وكان هذا الدلال تعبيرا عن سعادة الأم وسعادة الفتى والفتاة. وما كان يحسبها إلا أن تكون الزوجة له. وحين بلغا أشدهما ما تسترت منه ولا احتجبت عنه، فالثقة فيهما من الأسرتين أوقعتهما في أسر الحب لا ينفك اساره إلا حينما تزف العروس للعريس، وحينذاك يصبح أسرا جديدا هو الانطلاق من رقابة العيون وعطف العيون.

وكان هناك بعد وفاة والد الطفل زوج لأخته هو أقرب قرابة للفتاة فأصبح هذاالزوج للأخت الوصي عليه، والرقيب عليهما، يحاذر أن يكون زوجا لقريبته لئلا يكون أبوها وهو خاله منتزعا للوصاية منه حين يثبت رشد الفتى فحاول ألا يتم القران بينهما. وقد انتصر حين أغرى ابن عمها أن يكون هو الزوج لها. وما كان ابن العم هذا شديد الرغبة في الزواج ولكن الإلحاح وحدب عمه عليه ورغبة أبيه وكيد الوصي وبحكم القرف الذي كان.. ابن العم أولى بابنة عمه فهو يجبرها على كل خاطب لا يباح زواجها من أجنبي مادام ابن عمها قد أجارها يريد الزواج منها.

وبكت.. وبكى. وكانت ليلة الزفاف فجاء دور أختها الكبرى تقسم أن أول

من يكشف (الطرحة) عن وجه العروس قبل عريسها هو هذا الفتى الذي كان يدعى عريسها من قبل. فاحتالت الأخت تحجز العروس بعد أن تمت (الشرعة) وكمل التزين، فأبعدت كل من حولها وحجزتها في غرفة بحجة أن تستريح بعدما تعبت من التزين وما إلى ذلك. وأبعدت كل عين تنظر، رقيبة أو حبيبة.

ونادت الفتى الرجل (!!) يدخل لا يراه أحد يكشف الطرحة فسالت دموع العروس وسالت دموع الفتى، وما مستها يده وما طبع قبلة على جبينها بل تجسد أمامها كأنه عابد في صومعة وكأنها المتبتلة في محراب.

رآها .. و باركها .. وقالت الأخت (هيا .. أخرج .. الزواج قسمة ونصيب).

ومضت سنون، فأحب أن يراها .. قد أصبحت أما، والأمومة تحتم الطهر والعفاف، فحرمت على نفسها أن تراه، أو أن يراها. فقالت له من وراء (الشيش) :

ــ لا تنكأ الجراح .. ولا تجرح العفاف .. فنظرتك إليّ أو نظرتي إليك تخدش الأمومة. أنا لا أقول لك انساني بل سعادتي أن تذكرني، ولن أنساك. لكن كلنا إلى قدره قد مضى.

فتنفس يحكـي ليَ حكايتها، فقلت له :

ــ هكذا الأمومة قداسة ولا أدري ما أقول للأبوة. فكن طاهرا كما كنت يوم لا رقيب عليكما. إنك تعيش سعادة الزاهدين عن العبث، فعمق الحب لها فيك قد رسخته حين امتنعت أن تراك.

ومات بعد أن شاخ، فإذا هي تلبس السواد تحتال على ذلك بمصادفة غريبة .. وفاة قريب لها في اليوم الذي مات فيه حبيبها.

العايقة أم حجل

ونشأ طفلا في حجر أبيه، وفي ليلة من الليالي رأى الدموع في عيني والده تنهمل صامتة لا تتكلم، فازاح الطفل وقال: (الحمد لله) وسجد شاكرا لله، فعجب الطفل من صنع أبيه، وانعقد في نفسه أن يسأله يوما ما عن الدموع والحمد والسجدة، حتى إذا كبر قليلا سمع أباه يغني أغنية صعيدية:

يامه يـــا الفجـــل.. غـبغـــب غطى الرجـــل
والعـايـقـــة أم حجل.. عـمـا تـتـمـخطــر فيـــه

فاغتنم الفتى الفرصة يسأل والده عن الدموع والحمد والسجدة والعايقة أم حجل، فقال أبوه:

إنها هى.. ولم يسمها!

كنت في البلد ــ يقول الأب ــ ولما أبلغ السابعة عشرة من عمري، فأحببتها وأحبتني، وكانت حلوة، فاجترأت وأطاعت، وأمكنتني من نفسها حتى كدت أقطف الثمرة، فذكرت الله وابتعدت عنها.. رفضت الحرام، فقالت وهى لازالت في نشوة الغريزة: (مالك؟ جبان.. اخص عليك).

قلت: بل أنا شجاع، قتلت الشهوة واحترمت التقوى. وخرجت ولم أعد إليها، لكنها لازالت حبي. وقبل أن أهاجر إلى المدينة زفت إلى عريسها فزغردت أمها وخالتها، وكل الذين رأوا بياض الوجه عرفوا أنها لازالت بكرا يحمد لها عريسها عفتها، فعرفت من أنا حينذاك! وجاءت إلى البيت تسأل عني فقالت:

ــ شكرا شكرا.. عرفت لك الشجاعة يوم أقصيتني عن الحرام، وتمتعت ليلة العرس بسعادة الشرف، وشرف السعادة. كان ذلك عطاءك.

فدمعت عيناي، فقالت: أتبكي؟!

قلت : أرسل دمعة الشكر تحية لك أسجل فيها بقاء حبي العفيف الطاهر، ورحلت فلازلت أذكرها كلما نسيت هموم الغربة ، وكلما استأنست بوطني الجديد ، فالأرض التي أملك ، والولد وأنت واخواتك رابطة ربطتني أن أنسى كل شيء هناك ، ولكن تلح عليّ الذكرى فأراها تمشي أمامي في الغيطان، كأنها هى التي علمتني درسا ألقنه لك لتكون في وضع لا يشين .

فالندامة يا بني حسرة تأكل القلب ، وإن كان فيها بعض التطهيرمن الذنب !

أستغفر الله وأتوب إليه .

من هنا لم تكن للفتى إلا النظرة الأولى ، و يقول بعدها : (ما شاء الله تبارك الله أحسن الخالقين) . .



الحَـــنين

وأحبها وأحبته، وكنت الخلي وكان هو الشجي، أسمع حنينه أنينا، وأسمع حبها غضبا، ومن أجله لا من أجل ذاتها، تغضب إن حرمت منه، وأمسح دموعه إن حرم منها، فإذا أنا الخلي أصبحت شجيا.

ــ قلت له مرة: ما أحسن أن أتصرف في هذا المثل (و يل للشجي من الخلي) لأني أصبحت تحت ضغط الحب.. حبها له وحبه لها.. لست خليا بل كنت الشجي، أشقى بشقوتهما وأنعم إذ أراهما يلتقيان، لا بدافع الحب يعلنه كل منهما وإنما بدوافع أخرى يتخذان منها الوسيلة للقاء. فأصبح المثل هكذا: (و يل للخلي من الشجي).

فشقوتيَ مثالية، وشقوتها أصبحت أمثولة، سجلت نفسها في نفسيهما.

وكان الاقتراب لا يحسب بعدد الاغتراب، فإذا وسيلة العيش تغترب به و بها، غر بة زاد المسافر فيها الحنين والذكريات والغضب!

وابتعدت عنه وما ابتعدت عنها، فلازالت فيه (أناهي) فهي حياة له دونها. واقتر بت فكان الاقتراب بلسما هدأ فيه الحنين و بقى الغضب فيها لأن الاقتراب كان معايشة بالتراسل، والأنثى تريد المعايشة بالالتصاق.

ومرت سنون تكفيهما الثقة بالحب، ولكن وسيلة العيش كثيرا ما تكدر قيم الحياة وتؤثر على تقييم الحب، فالإنسان مهما استعصى على المؤثرات فإنه في لحظة وبمؤثر تافه يستتفه أن يعيش في الماضي ليركبه حاضر يزول، وقد ركب الحاضر حبهما، أعني الوسيلة التافهة، فإذا الحنين يذوب فيه، وإذا الغضب فيها يغضب على الغضب الذي كان، فاستحالت الابتسامة إلى قهقهة، كأن القطيعة جنون لم يشعر به كل منهما.

عادت، وكما كنت أظن أن الحنين سيعود، وإن الغضب سيصبح طريق الرضى، فوجدته قد استجاب لحنينه، وما أحسبها إلا وقد استجابت لأنينها.

فهل عودة الحنين شعلة من الحب؟ وهل عودة الأنين برهان على حب جديد؟!

كل ذلك خيالات الخلي، أصبح شجيا يحس بهما وإن لم يعرفا أنه معهما في القطيعة والوصال ولا يغضب، لأنه يثق بالحب. فالحب لا يموت بأي مؤثر، وقد ينقلب انصرافا من الذكر، ولكنه لا ينقلب في الأنثى أبدا حتى لو أصبح حقدا وحتى لو حاول الانتقام، فحقد الحبيبة أو انتقامها جديد لذاتها من الحب القديم له الذي لا يزال جديدا فيها.

فالعاشق هو (أنا) والعاشقة هي (أنت وأنا). لأن الأمومة سلطان قاهر سلاحه الحب وطرفاه الحبيب والحبيبة. أما العاشق فليس لديه سلاح إلا استعراض حبها له يجتر باعلان حبه لها، فالأبوة ليست سلطانا قاهرا كالأمومة.

ورايته يفتش عن الوسائل وما أكثرها في يدها لا في يده، ليس عن عجز فيها يرغب، ولكن عن القوة فيها تستحوذ على ما ترغب.



تمروجم

ــ قلت له: حينما يصبح الحب معاملة على صورة من المقايضة، فإن هذا أشبه ما يكون بالبغاء حين تستحيل علاقة الصدق بالتعامل إلى أكذوبة!!

ــ فقال: هل إذا أعطيتك لا آخذ؟!

ــ قلت: إن عطاءك لي أخذي منك.. وعطائي لك أخذك مني، تعطيني وأعطيك بلا شرط، بتلقائية التلاقي ولكنك أنت قد زيفت الحب حين اشترطت أن يكون المقابل زيارة بزيارة، وقبلة بقبلة، هدية بهدية، فكل ما اشترطته تعامل مادي، حب مزيف.

ــ وقلت له: حين يستحيل الوفاء إلى مجاملة ابتغاء لتفريغ الوقت فإن ذلك البغي على الأخلاق.

ــ فقال: ألم أسمعك مرة تقول «إن واقع الحياة أفسد فينا أخلاق الكتب»؟!

ــ قلت: ذلك لأنك نفس سقطت في الشهوات، فلم تكن كالذي أسقط الشهوات فارتفع بمستوى الأخلاق إلى وفاء لا تحيط به المجاملة..

ــ وقلت له: إنك تكثر من الأصحاب.. بينما أنا أستكثر من الأحباب.. فالصحبة عندك وقت، والحب لا تريد أن تتقيد به، أنت شديد الرغبة أن تكون صاحبا، أما أنا فلا رغبة لي إلا أن أحب دون أن يكون الحب معاملة، فالعطاء مني وإن لم يكن أخذاً..

من هنا.. فالكراهية لا أملأ بها وجداني لأنها عطاء، ولكني قد أحتقر وازدرى.

إن مكارم الأخلاق أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك.. فلا يكمل إيمان المرء إلا بذلك.

إن الحب لكل أهلك هو خير ما تصنع ، و يرحم الله حافظ ابراهيم إذ يقول :

أمة فد فت في ساعدها

بغضها الأهل وحب الغربا

عذريّة الحُبّ

ونشأ معها ولها، فما من يوم إلا وهو يراها، وما من لقاء إلا وهو يرى فيها شيئا جديدا من الحب له، كأنما هو حبها، لا تخفيه، ولكنها تخافه.

أما هو فأحبها حبا على طريقة أخرى، يريدها لا تخفي مشاعرها، يريدها أن تكون له حين يبلغ الرشد الزوجة الحبيبة ليعيش بها ولتعيش فيه.

ومضت سنون، فإذا هي ناهد وإذا هو فتى!

فقال لها: أنت القريبة القريبة، قرابة من صلة الرحم، وقرابة من اللقاء المستمر، فلماذا لا نجعل هذه القربى تتسرمد، أكون زوجا لك وتكونين زوجا لي؟

ـــ قالت: كم أود ذلك.. لكن يمنعني أن أقتل الحب بالزواج، فحين أصبح زوجا لك تصبح شغلي الشاغل، خادما في البيت، مربية للأطفال، تغضب حينا فأسترضيك، وأغضب حينا فتترضاني.

حينذاك ينقل الحب إلى صناعة أو تصنع، وأنا لا أريد إلا أن يبقى حبي لك دون تصنيع له ودون مصانعة به، لهذا أبتعد عن هذه الرغبة في الزواج، فلتبق الحبيب، ولأبق المحبة.

أتزوج غيرك أعيش معه، وتتخذ لك زوجا غيري تعيش معها، عملا بسنة العيش، أما أنا فأمتلك الحياة حين أكون لك بالحب كله، ولا أفرض عليك أن يبقى حبك لي، فالرجال كثيرا ما يرهقهم الحب فينصرفون عنه، أما نحن النساء فالارهاق بالحب هو نعيم نحيا به، فالألم هو اللذة!

ألم تقرأ لي مرة كلمة لجبران خليل جبران «ابتغوا اللذة بالألم، وابتغوا الألم بالحب».

لا أريد أن أفجعك، فقد أخبرني والدي أني قد خُطبت لعريس لم أره، فوافقت،

ومن الانصاف لوالدي أنه استشارني، ما أراد أن يستبدّ عليّ، حتى انه ذكرني بك، فقلت له:

ـ استجب للخطيب.. واترك القريب.. فلم أجرؤ أن أقول الحبيب.. فالآباء لا يعرفون، وإن عرفوا لا يجهرون.

وتم الزفاف، فإذا هى أم لأ ولاد، فلم أدر أنها لازالت على حبها لي، ولكني أردت التثبت.

زرتها يوم عيد، ومن خوخة الباب مدت يدها، ثم نظرت إلى عينيها فإذا هما تبتسمان بدمعة، كأنما شقاء الحرمان يسعدها حين يكون الحب قد ملأ الوجدان.

ومازال حبها معي، أبقته الأ يام حين احترقت تموت، ولم يمت الحب!



عافية الدموع

خبر مثير!

كان الأثير لدى حين فكرت فيه، أسرع بي لأن أحب أكثر، فالبغضاء تأكل وجدان المبغضين. وحين قالوا عن الحسد إنه يأكل صاحبه لم يعرفوا أن البغضاء حسد الإنسان لنفسه، يريد أن يشبع بكراهيته للناس بينما هوقد أجاع وجدانه حتى أبغض فالبغضاء مرة أخرى تدمر العصب لأنها تأتي بالغضب أو يأتي بها الغضب.

أما الحب فحياة الوجدان، لا يرهق العصب، و يلبس الدم حرارة متجددة، حتى الغضب إذا ما طرأ على المحب كان فيه معادلة الترفيه واستفاقة مؤقتة ترتاح بها الأعصاب ليعود الدم ساخنا، حتى ليشفى المريض مرضا جسديا حينما يبرز الحب بفورة الدم يتحدى المرض.. يتعداه إلى صحة جديدة.

ـ قال لي: ما رأيك في الزواج والحب؟

قلت:

ـ الزواج امتلاك، لكنه يضعف الحب بين القرينين حين تستديم الحياة الزوجية إلا إذا تطورت بحب جديد.. حب الأبوة والأمومة.

فالحب إن كان سببا للزواج أصبح مطلب هذه الأيام، بينما الزواج قبل هذه الأيام وإن كان امتلاكا فإنه قد يتأصل به الحب.. بالمودة والرحمة والبنوة والعشرة..

إن الزواج الامتلاك قد يطغى به مادة الامتلاك، ولكن الحب هو الامتلاك الأقوى.. قوة المعاني.. قوة الروحانية في العاطفة والوجدان والعقل والتصرفات.

و بعد هذه المقدمة أصغ الخبر المثير!

إنه خبر أبان قدرة الله التي أودعها في الحب، كما أودعها في الدموع. فالبكاء قد لا يكون حسرة، وقد لا يكون سخرية، إنه كثيرا ما يكون مطلبا جديدا استجابة لنداء

الحب.

وسمعت هذا الخبر من (صوت العرب) في برنامج أو سهرة (أصائيس) (يعني أقاصيص) فقد نشر وأذيع أن فتاة انجليزية نسيت اسمها نشأت عمياء حتى بلغت ثمانية عشر عاما من عمرها، وعاشت تحب صديقها وصدقت أنه يحبها، ولكنه حين بلغت هذه السن ولم تبصر وظلت عمياء تركها.. انصرف عنها.. ولعله أعلن أن السبب في عقوقه كان عماها. فبكت.. وبكت.. وانهالت الدموع.. فإذا هى تفاجأ بالنور يلمع خلال الدموع!

باكرها الضوء شعاعا من حرارة الدم والدموع وعمق الحب.

أخذوها إلى الطبيب فأبصرت.. رأت الدنيا، فإذا الدنيا على سعتها تضيق، وبضيقها تتسع.

فالحب حين أطبق عليه اليأس ثار.. أعلن قوته وفرض سلطانه.. وكانت الدموع سلاحه. أي معجزة هذه يصنعها الحب الذي أودعه الله في القلوب!

و يعجبني قول الرافعي يكتب عن تنازل الملك الامبراطور (ادوارد الثامن) يوم تنازل عن العرش من أجل الحب.. حبه لمسز (سامسون):

(وجاءت الدنيا بالامبراطورية والأسطول والعرش، وجاء الحب بامرأة مطلقة من زوجها، فقال الحب هأنذا).

فانتصر الحب!



الفاغيـة والحادر

من الفولكلور الشعبي أغنية مطلعها ولا أحفظ تاليها (يا بنات الهنود .. يا فاغية في العمايم) فتأثرت عواطفنا باسم (الفاغية) حتى أحببنا هذا الاسم ولا أريد أن أترك القارىء وقد استعجم أن يسأل عن (الفاغية) عجوزا مثلي.

إن (الفاغية) هى زهرة الحناء .. بيضاء قمراء .. يضوع شذاها في الفجر، كأنما هى تفرح بالصباح ليفرح قاطفها بها، والتياهون من الشباب يغرسونها في عمائمهم كما يغرسون الفل والورد على صدورهم، وأعني التيّاه ماتسميه العامة بـ(العايق) يقولون (فلان عايق) إذا استعرض شبابه أمام أنداده باللباس يشتريه بثمن غال، يتيه بأنه يملك أن يشتري (اللاس) و(الكشميري) و(السليمي) و(البرسمي) و(السقاطة) و(فخر الموجود) و(الرشوان). تلك أحزمة وشيلان وأثواب يتزين بها المترفون.

وتأتي (الفاغية) زينة على الزينة!

وهناك أغنية أخرى من هذا الفولكلور هى (يا لعشرة .. خللي الحادر يمشي .. يمشي على رمشي)، ويخطىء بعض من يغنيها فلا يقول (الحادر) وإنما يقول (الحجر) فيحصل الالتباس.. هل هم العشرة ومن العشرة؟ وما شأن الحجر يمشي على الرمش ؟! فضياع الفلكلور والاستعجام قد وضعا الاشكال فيحسن أن نزيل الاشكال بالتوضيح.

فالعشرة ليست جماعة من الناس عددهم عشرة، وإنما هو اسم لأحد المطاليق، فعندنا في المدينة المنورة شخص اسمه (العشرة) وفي مكة المكرمة كذلك، ينادونه وهو المطلق من (مشاكلة) الحارة أن يفتح الطريق للحادر، أي النازل من (النقا) إلى (سوق الليل) أو النازل من (النقا) (العنبرية) إلى المناخة، فنحن نقول بلغة البادية: (أنا حدرت من مكة إلى جدة، أوحدرت من الفريش إلى المدينة، واصعدت من جدة إلى مكة أو من المدينة إلى الفريش.. كما نقول: (حنا محدرين من الطائف إلى مكة،

أو مصعدين من مكة إلى الطائف، أو انحدرنا من رحقانْ إلى المسيجيد، أو صعدنا من المسيجيد إلى ورقان) . فرحقان و ورقان جبلان ينحصر بينهما وادي الصفراء .

فالأغنية فيها لفظة (الحادر) لا الحجر، وهكذا ضاع الفولكلور كما ضاعت الصناعات المحلية اليدو ية و كثير من أدوات التراث فكم هو جميل أن تعنى المتاحف بحيازة أدوات التراث كما يحرص الجماعون على التراث من الفولكلور.

ولا يفوتني أن الذين أخطأوا بين الحادر والحجر لهم عذرهم فنحن نعرف من الشباب من كان يلقب بالحجر، يناديه أصحابه (تعال يا حجر). ولا أدري كيف نسيت أمانة مدينة جدة أن تملأ الحدائق بالحناء لتفوح الفاغية!



ومازال بهـا..

وسألته : كيف أنت بها الآن؟

فوجدته بين حالين .. صحوة استيقظ بها ، وغشية كادت تذهب بصحوته ، فحين أطرق جاءت الإجابة دمعة من عينيه ، وارتحت أن أبكيته ، حتى إذا أفاق قال :

ــ أنت حين يأخذك الألم وتركب الحزن وتصوغ العبارة البيانية مجنحة لا تنحصر في المعنى الواحد ، وإنما هي تتسع وتتسع لكثير من المعاني ، كيف خطر لك أن تسألني فلا تقول : كيف أنت معها ؟ أو كيف أنت فيها ؟ بل أسقطت ذلك تحصرني لتعرف حالي حين قلت : كيف أنت بها ؟!

قلت :

ــ قد أردت ذلك ، فأنت لم تكن معها ، فهي أقصت المعية ، ولم تعد فيها ، فهي قد رفضت ذلك ، و بقى أن تكون بها لتكون لها ، أو لا تكون كذلك .

قال :

ــ حين ينتهي التعلق معها أو العلاقة فيها ، فذلك مظهر قد يكون فيه المخبر المعبر عنها ، ولكنه المظهر الذي لن يكون تعبيرا عني ، فأنا لازلت بها وإن رفضت أن أكون لها .

قلت :

ــ ذلك كسب كبير تعيش في نعمائه ، و يعني ذلك أنك لازلت العطاء دون أخذ تصون حبك حين تعطي ولا تأخذ ، أما هي فقد أعطت وأخذت ، حتى إذا بخلت بالعطاء لم تبخل على نفسها بالأخذ .

ذلك فرق كبير، ما كنت أحسبه يكون إلا منك ، لا منها ، فإذا بي أصاب بخيبة حسن الظن ، واليقين بسوء الظن .

لقد أسأت الظن بك حين طرحت عليك هذا السؤال، لأحسن الظن بها، ولكنك قلبت موازيني، فإذا أنت العاشق تذوق الألم وبه قد هذبت أخلاقك، فطالما أنا وأنت نعجب بقول جبران خليل جبران:

(ابتغوا التهذيب بالألم، وابتغوا الألم بالحب).

وكنا نرتاح كأنما أنا وأنت وجبران قد رجعنا إلى الوراء، فاللذة بالألم فلسفة (القورانتينيين) يتزعمها (أرسطبس)، ولقد كانت امتدادا لفكرة اللذة بالتعذيب.. فلسفة (الهنادك)، فإذا فرغنا من ذلك أرسلت تنشد هذا البيت:

منى إن تكن حقا تكن أحسن المنى ... وإلا فقد عشنا بها زمناً رغـــدا

وتركته يضحك حين تنفس، وودعني وأنا ابتسم إذ لم أتنفس بعد، فوجود الحبيبة في الحياة مجال للتنفس، أما غيبتها حين احترقت فلا مجال للتنفس.



الوفاء للحُب

وطرح عليّ سؤالا: هل هناك حب بلا وفاء؟ أو بمعنى أدق: هل ينجح الحب دون وفاء؟ وقبل أن يطرح هذا السؤال ليكتبه قال:

ــ ألا تخشى أو تغضب من قارىء يضعك في موضع النقد إذ يقول: لقد أمسيت عجوزا، شاب قرناك، ومازلت تكتب عن الحب، هل أنت تخدع قارئك أم أنك صادق مع الحب؟!

إن هذين السؤالين كل منهما أجاب عن الآخر بطريقة يستحلب بها إثارتي لأعطيه الجواب لا كما يريد لأني أجهل ما يريد، ولكن الإجابة أطرحها بعد.

إن الوفاء بالحب لا أراه سؤالا يتضح به الجواب، فالوفاء بالحب معناه الأخذ مقابل العطاء، أو هو الأخذ دونما عطاء، وكان يحسن أن يقول الوفاء للحب، فالوفاء بالحب مطلب مادي، أما الوفاء للحب فهو العطاء دون مقابل، و يعني ذلك أن الحب يفرض إرادته.

فالحب كله وفاء، سواء كان وصالا أو هجرا، فلا يقبل المحاسبة، وإنما هو ينمو بالمعاتبة، لكن.. لعل السائل عبر بالوفاء عن العطاء مقابل ما أخذ منه، توارى وراء الوفاء عبر به عن الوصال، ولكونه في غمرة العشق لا يقبل إلا الوصال. فإذا كان الوصال هو الوفاء فلا يكون الحب إلا وقد تسربل بالهجران.

فالهجر وصال للحب وإن لم يكن وصالا للحبيب.

أما السؤال الثاني فإني ولله الحمد أعيش الحب للحب، فقد قلت في ضحى اليوم لصديقين عرفت أنهما في متعة فقلت لهما: (تأكدا أني أتمتع بمتعة الآخرين، سأقوم من عندكما أجتر الفرحة بما تمتعتما).

ذلك الصدق مع الحب وتلك الصداقة معه.

وأنا أعرف هذا المثل الفارسي (شيئان أبرد من يخ (ثلج) شيخ تصابى وصبي تمشيخ)، فاليخ يعني الثلج، ولست كذلك.

كما أني لا أبلغ مبلغ الفراشة، ولا يصرعني الحب صرعة البلبل، فالشاعر الفارسي (الفردوسي) يقول حين خاطب البلبل عاشق الورد، قال:

(أيها المرغي في السحر.. أنت عاشق مسكين، لا تتحمل صرعة الغرام فالفراشة هي التي تموت غراما حين تحوم حول حبيبها، النور في المصباح، النار في الموقد، تحوم الفراشة حول النور والنار لتحترق في جوف ما تحب، أما أنت أيها البلبل «المرغي» فلا تتحمل عضة الوصال، تحوم حول الوردة في ضوء الصباح فإذا تنشقت أريجها أصابك الدوار.. يغمى عليك.

إن الوردة لم تقتلك ولكنك لا تطيق الوصال، أما الفراشة فيحرقها الوصال).

إنها رمز العشق في تعريف (الفردوسي)، أما البلبل فعاشق يخاف الوصال.

إني العجور لا أمنح الكراهية لأحد، لأن الكراهية عطاء تشغل بها وجدانك، ولا مكان عندي إلا للحب.. حب الحب.. فليسترح ذلك الناقد، فمتعتي أن يقرأ لي، وأنا أكتب أناغيه، لا بالغضب منه وإنما بالحب له.



باطن الكف

وهلّ يوم الخميس، الخامس من شهر رمضان، وذهب معلم الصبيان مبكرا إلى المدرسة، وبعد الظهر، نام على فراشه، وإذا به ينتفض، كأنما هى حمى الغب (الملاريا).. هكذا ظن، فأحيانا كانت تعتريه.

وعلى مائدة الإفطار، سأل أبوه عنه: أين محمد؟ قالوا: هو فوق (عليه حمى نفاضة)، فأخذ الأب الدرج طيا، يسرع ليرى ابنه.. فقال له: افتح فمك، ونظر إلى تحت اللسان، فإذا هو يرى خيطا أسود، فضرب الأب كفا على كف، وقال: هى الملعونة.. قال الابن: من هى؟ وكان ساعتها يتذكر حبيبته، فظن أن أباه يعنيها، يكلفه الحرمان منها، لأنها السبب في مرضه.

فقال الأب: الملعونة هى (الجمبة) يعني ذات الجنب، أو التهاب الرئة.

وذهب الأب يفطر على تمرتين، و يشرب ما يروي غلته، ولم يغب ساعة، حتى جاء ومعه الطبيب البدوي (سلامة الريفي) الجهني، فقد كان خلفا في طب البادية، حين كان أبرع من (جزي الظاهري) فقد كان (جزي الظاهري) الطبيب الأول لمعلم الصبيان، حين أصيب بذات الجنب وهو طفل، فكواه ست (كويات).. سألوه:بس؟ قال: كل (كوية) في مظانها، وخرج الطفل معافى.

أما (سلامة الريفي) فقد كواه في المظان، ولكن لم يكن التهاب الرئة الواحدة بل كان التهاب الرئتين، وأعطانا روشتة غير مكتوبة، فالطبيب البدوي، لا يعرف الأوراق، فكل ما أعطانا: لا يأكل الدسم، ولا اللحم، يأكل فطيرة جمر، وعسلا، ولا غير ذلك، أما الماء فـ(اغلوه) ثم بردوه وضعوا فيه مسحوقا من (الشبة السودة).

وذهب الطبيب، وثبت معلم الصبيان على الحمية، ولكن قبل أن يذهب سلامة سألته لماذا الشبة السودة؟ فقال: (تقشع البلغم والدم) لتصفية الرئة.. ولا يدري كيف شرب مرقة دسمة، سقتها أخته له.

وقبل العشاء ــ بكسر العين ــ اشتد عليه المرض، فأغمي عليه، وإذا به يصحو على صوتها، من لمسة يدها على جبهته، ومن دمعة سالت من عينيها على خده، فإذا اللمسة والدمعة تصحوان به، ينظر إليها، يقول: فلانة؟ و ينشد ولا يسمعه أحد إلا هي، فقد أغلقوا الغرفة عليهما، كان الأب وامرأة الأب، والأخت، يعرفون كل شيء، فتركوا الشيء للشيء، تركوا الحب يفعل فعله، فأنشد يقول:

اذكرونا مثل ذكرانا لكم ... رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا إذا غنى لكم ... شرب الدمع وعاف القدحا

ولم يشعر إلا والدموع ترسل حبها، والفرحة في وجدانه، تعلن حبها، كأنما هي غسلت الرئة، **فإذا هو شديد، ووضعت كفها على فمه، فقال لها: أتريدين أن أسكت؟**

قالت: لا، أريدك أن تقبل باطن الكف، لا ظاهرها، فالقبلة على ظاهر اليد احترام، أما قبلة باطن اليد، فاعلان الحب، كأنك حين تقبّل كفي، تقبلني كلي، أما ظاهر اليد، فقبلة بعض، المعنى جديد، جدد فيه النشاط، فإذا به يصحو، وقد كان في الثامن والعشرين، أما الآن فقد نيف على السبعين.

الأرض

وتلفنت أسأل عن الابن (بدر كريّم) أجده في مكتبه في «عكاظ»، فاستجاب وكأنه لا يجيب، فإذا بي أضيف إلى ما شعرت به حين شافهته إذ أملي عليه أنه يتحرك بـ«القرف» كأنما الدنيا أطبقت بكل رزاياها تحرمه مزاياها.

شعرت بهذا القرف قد انغمس فيه «بدر كريّم» كأنه وظيفة جديدة يعمل بها بينما هي تعمل فيه. قلت له: مالك قد التحفت بالقرف، فأغثيت نفسك بشعور أسود، بينما أنت قد أسقطت كل المعوقات فأصبحت في مكان فيه الجزاء لمن سعى يطلب المعرفة بكد الجائعين ليشبعوا؟ دع عنك هذا القرف وابصقه على الأرض. وما كدت أسمع كلمة «الأرض» فإذا جرسها يقول لي: أما تستحي من أمك الأرض؟! واستحييت وخفت وشعرت بالعقوق. لماذا نبصق على الأرض؟!

الأرض الأم «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى»، «جعلت لي الأرض مسجدا وتربتها طهورا».

الأرض حياة الإنسان ومعيشته، فيها كل الجمال، فلو نظر إليها الإنسان نظرة الحب لوجد نفسه عاشقها أكثر من أن يعشق القمر!

أكثر من أن ينظر إلى الزهرة، وأكثر من أن يكون فلكيا يحسب البروج ويحدد المطالع. فالأرض هى الجبل والنهر والبحر والشجر والعشب والنخل والإنسان والحيوان، أفأكون فيها و بها فلا أكون الوفي لها؟ أسأت الأدب حين قلت له ابصق على الأرض. كل شيء في حياتنا ومن هذه الغوالي بالذات يستخرج من الأرض.. الذهب والفضة والحديد والنفط والنار والكهرباء، وكل مصنع وكل صناعة هى من الأرض، عطاء الله للإنسان، خلقه منها وخلق له كل شيء يتمتع به في باطنها أو ظاهرها.

ولقد عرف المعري قيمة الأرض حينما قال:

ســـر إن استطعت في الهــواء رو يــدا
لا اختيــالا على رفــات العبــاد

صــاح هـذي قبــورنـا تمـلأ الرحب
مـن قديــم الزمـــان والآبـــاد

خـفــف الـوطـــأ ما أظـــن أديــم
الأ رض إلا مـــن هـــذه الأجســـاد

وجزعت من نفسي ولكن الأ رض التي أعطت من نعم الله هي التي تأخذ .

فقد حملت الإنسان على ظهرها ، وتحملت منه ما أوقر له ظهرها ، فهي ليست عابسة وإن كانت يابسة ، ستظل باسمة تفتر عن الخير. ومن عجيب أمرها أن الخير عطاؤها والشر عطاء الإنسان لها ، ولكنها لا تجزع من ذلك فإن عمارها ما كان ولن يكون إلا بهذه المتناقضات .



تكاثرت الظباء على خراش

إلى أصدقائي الثلاثة

أذكر أسماءكم حسب الترتيب الزمني لما كتبتم.. ابن بطوطة وأظنك حمد القاضي، والكاتب المترسل صاحب الرسالة الموجهة إليّ في جزيرة المساء أو مساء الجزيرة «المسائية»، والسيد رئيس تحرير مجلة «الفيصل» علوي الصافي..

كلكم كتب عني فأنشدت..

تكاثرت الظبـــاء على خـــراش
فمـــا يدري خراش ما يصيـــد

فابن بطوطة ما كتب عني وما كتب إليّ وإنما كتب عن نفسه وإلى نفسه، وجعلني الموضوع يتنفس، يكتب آلامة ونقده وصفوته وجفوته، كأنه ساعة أن كتب إليّ كان يعيش أزمة خانقة اختنق بها القلم فسال رعافه. أنت تريد أن أكون غير ما كنت مع أنه لا تبديل لخلق الله، فكثيراً ما أعجز عما أريد لأكتب ما يراد، وأنت حين عجزت أن تكتب موضوعك كما تريد أردت أن تكتبني كما أردت.

فحين ألقاك أشعر ببهجة الود وحين قرأتك أو استقرأتك في اليوم الأول من شهر صفر سنة ١٤٠٣هـ لأنه قد غاب عني أن استقرئه يوم كتبته.. حين ذلك شعرت بومضة الحب، فهنيئا لي بك، وأرجو ألا تشقى نفسك بمن تقيد كاتباً ولا يستطيع أن ينطلق مكتوباً بك أو مقروءاً لك. فالقيد ليس قيد القلب وإني سأفجعك لأقول إنه قيد الجيب. وأنت لبيب بالإشارة تفهم.

٭ ٭ ٭

أخي.. صاحب الرسالة في «المسائية»

أتاني حين استقرأتك أنك أبيت اللعن، ترسل الثناء عليّ، تبرقعه بالاغراء،

فأنت أرفع شأنا من أن ترسل الهجاء، كان ثناؤك يتوازى مع إغرائك أو هما قد تساو يا.

فقد برقعت الاغراء ببرقع كالذي على وجوه العُرُب الأ تراب يتنقبن ليتلقفن، تجدهن شرق المدينة أو في حرة خيبر، جعلتني أعيش مع البرقعة هذه حتى إذا أسفرت سافرت إليك بكلمتي هذه أشكرك ولا أكفرك، غير أنه عزيز عليّ ألا أكتب في «الجزيرة» أو في «المسائية»، فالجزيرة وطني والمساء سكني، ولكن صداقة القلب باقية، والكذب مع الحبيب يحرمني الرديف من زيادة دخل أتوسع به، فقد تقيدت أن أكتب في جريدة «الشرق الأوسط» بأجر معلوم، وأن أكتب في «عكاظ» بأجر كذلك. فهل أترك الأجر أم أضع قلمي في مزاد علني؟! فمن أغلى اعتلى، أتراني فضحت نفسي لأ تستر أمامك أم هو كما قال الشاعر:

يـقـضـــى على المـــرء في أيـــام محنته
حتى يرى حسنـــاً ما ليس بالحســن

الحسنُ أن انتشر كما تبغي، وغير الحسن أن انحصر فيما أبغي.

إن هذه البرقعة على وجوه العُرُب الأ تراب تبرقعت بها رسالتك فالبراقع عليهن «باطنها فيه الرحمة وظاهرها من قبله العذاب»، فلقد عذب كلامك وفيه الكثير من التعذيب.

* * *

أخي علوي الصافي..

قبل أن استقرىء مقالك في مجلة «الفيصل» بدقائق تذكرت أنك نسيتني حتى جهلت أني كنت على سفر فلم تدر أني قد وصلت، لقد تعودت منك أن تتلفن إليّ فأتلفن مقالي إليك، ولم تمض تلك الدقائق حتى جاء ابني المحرر في «عكاظ» عبدالكريم يعقوب فقرأ عليّ مقالك. فقد جعلتني موضوعاً تتبرقع به بينما كان الموضوع ينبىء عن صفوتك للصفوة من أصدقائك وجفوتك لهم لأنهم لم يصادقوا الحرف في الوقت الذي تريد أو كيفما تريد. كنت أنتظر أن تتلفن إليّ، ولكني أجلتُ الانتظار لأني سأكون في الرياض إن شاء الله يوم الأحد السادس من شهر

صفر.

عتبت فلم أغضب، أو أنك أغضبت فلم أعتب، ولكن غضبك لم يكن موجهاً إليّ وإنما هو ثورة في نفسك على الكاتب تريده لك ولإخوانك القراء ليس عبر مجلة «الفيصل» فحسب وإنما عبر أي قرطاس تسود فوقه الحروف.

فأنا أعرفك لست من أصحاب «الأنا»، فما أحلى الكاتب وما أجمله أن يكون من أصحاب الـ«نحن».

إن هؤلاء الأصدقاء، وأنت منهم، حين كتبوا أخذت أجتر كلامهم كالناب في مبركها تتخذ من العطن طرفاً فكلما حست بظلال شخص رغت تستغيث تظنه راكبها أو ناحرها.

إني كالناب حين رغت تطلب أن يبعد عنها الناس مع أنها أو مع أني ما كنت إلا للناس و بالناس، ولكن الأ يام قُلب، والسنون تجعل من الضعف قوة لحب الحياة، ومن القوة ضعفا يصيبها القرف من الأحياء.

شكرا لكم جميعا، وأدام الله عليكم نعمة التفوق في كتابة الحرف وصناعة البيان.



فهرس الموضوعات



مطابع الشروق للاوفست - الرياض